قصص

الدخلاء

سارة النمس



الدُخَـــلاَء

" مجموعة قصصية "

سارة النمــس

رقم الإيداع لدى دائرة
المكتبة الوطنية
٢٠١٣\٨\٢٨٢٠

(سارة النمس- الدخلاء- عمان: دار فضاءات، ٢٠١٣)

▪ أعدت دائرة دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية

▪ يتحمل المؤلف المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية اخرى

ISBN: 978-9957-30-477-5



الطبعة الأولى: 2014

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق

الدخلاء - سارا النمس – الجزائر

دار فضاءات للنشر والتوزيع- المركز الرئيسي

عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6 – 962+) هاتف جوال: 911431 -777(962+)

ص.ب 20586عمان 11118 الأردن

E.mail: Dar fadaat@yahoo.com

Website: www.darfadaat.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي والطباعة: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.



الإهداء :

إلى زهرة الياسمين

الموشومة على القلب و الذاكرة

إلى روحِ طفلة .. " قارئة سمراء "

علِقت بالعمر ثمانية !

أبت أن تكبر .. حينما قررت الرحيل إلى عالمٍ آخر

الحورية الغائبة بجسدها

الحاضرة بروحها دائماً

إلى " دلال الياسمين "

القِطـةُ... سيدةُ البيتِ

لم يخطر ببالها يومًا أنّ الفرحَ قد يقتل صاحبَه إن داهمه فجأةً كأنّهُ على الشقيّ أن يتناول الفرح على جرعات متباعدة كالدواء وإلاّ فتكَ بهِ كما يفتكُ السّم. ما حدثَ تلك الليلة أنّهم كانوا يترقبونَ الهلال على الشاشةِ الصغيرة نادين ووالداها، حينَ أعلنت الجماعةُ أنّ يوم غدٍ هو اليوم الأول من شهرِ رمضان دقّ أحدهم الباب، انسحبت السيّدة صفية لتفتحه وإذ بها تتفاجأ بابنها العائدِ من ألمانيا الذي لم تره منذ أحد عشرة سنة، نزلت من عينيها دموعٌ غزيرة، قبلّت وجهه كلّهُ، يديه ثمّ سقطت عند قدميه، شهقت شهقةً واحدةً وابتسمت أخيرًا بعد سنواتٍ من الإنتظار. يوم الجنازة اعترف جلال باكيًا: "فليغفر الله لي، أنا الذي قتلتُها، مرةً وأنا أغادرها ومرةً وأنا أعودُ إليها."

كانت نادين في غمرةِ حزنها عندما وقعت في الحُب، دعتها صديقتها ندَى إلى حفلِ زفافها ولأنّها الصديقةُ التي وقفت إلى جانبها في كل المحن كان عيبًا ألاّ تكونَ حاضرةً في أكثر الأيّامِ سعادة لها. هناك تعرّفت على فؤاد، رأى امرأةً تعسةً تجلس في زاوية القاعة، وحدهُ الحزن كان جاذبيتها الوحيدة، امرأة محطّمة تنتظر أحدًا ينتشلها من ذلك الحطام قرّرَ القدر أن يكون هذا الرجل فؤاد. الإستيقاظُ إلى جانبه كان كالاستيقاظِ من حلمٍ جميل، تراقب ملامحه الساكنة، تتحرش به إلى أن يفيق. أمّا في ذلك الصباح الهادئ فاستيقظ زوجها قبلها، قبّل باطن كفها، ذراعها البضة، شفتها العلوية ثم السفلية إلى أن استيقظت ليفاجئها برحلةٍ يعوّضها بها عن شهرِ العسل الذي أجّلاهُ منذ سنة. اختارَ أكثر مدينةٍ تحبُها "جيجل" في كوخٍ هادئ أمامَ البحر لا يخرجان منه ولا يأتي إليهما أحد.

لم يكن الوصولُ إلى المدينةِ سهلاً فقد عبرا طريقًا جبليًا وعرًا لا يكفي سوى لسيارةٍ واحدةٍ. كلّما كانَ فؤاد ينعطف كانَ يتجنبُ النظر إلى البحرِ تحته، أيّة غلطةٍ من يده التي تمسك بالمقود أو قدمهِ التي تزيدُ من السرعة كانت لتجعله يفقد السيطرة على السيارة فتتدحرجَ بهما إلى الأسفل. ما إن وصلا حتى أوقد فؤاد سيجارته وسحبَ نفسًا طويلاً لكنّ نادين لم تبادله هذا الاطمئنان بعد رؤيتها للكوخ المنعزل، تركَ انطباعًا سيئًا في نفسها، شيء فيهِ جعلها لا تحبُه لكنّها استسلمت لرغبةِ زوجها الذي أقنعها بأنّه أفضلُ مكانٍ لقضاءِ عطلةٍ استثنائية.

غيّرت نادين ملابسَها ثم تفقّدت الغرف فهي ترغبُ بأن تحفظ أماكن الأشياء منذ اليوم الأول، أطفأت الأنوار واستلقت إلى جانب زوجها. كان لدقاتِ الساعة الحائطية صوتٌ قويٌ جعلها تدخل في حالة تركيز ثم خوف فعزلة! كالتي تنوّمُ مغناطيسيًا شعرت بجسدها يتخدرُ شيئًا فشيئًا بدءً من أصابعِ قدميها ثمّ ساقيها وصولاً إلى خصرها كما لو كانت تغوصُ في رمالٍ متحرّكة، أيقظت فؤاد فسحبَ أقرب كرسي إليه، صعد فوقه محاولاً البحث عن مكان البطارية: "ليس لهذه الساعة بطارية ! لحظة.. تمكنتُ من تعطيلها، لقد توقفت عن التكتكة."

نفض الغبارَ عن يديه ولم يجد صعوبةً في العودةِ إلى النوم، مضت دقائقٌ من السكون وما لبثت الساعة تعمل من جديد دون تأخير كأنّ فؤاد لم يعطّلها، حاولت نادين تجاهل صوتِ الساعة الذي كان يدق على رأسها كالمطرقة وأثناءَ نومها شعرَت بيد حطّت على ساقها تحاول إيقاظها بنكزاتٍ قوية، فتحت عينيها فرأت نافذة الغرفة مفتوحة أمامها تقف امرأة شديدة البياض، بالغة الشحوب بعينين حادتين وخضراوين مثل امرأةٍ بعيني قطة، تحملُ في يدها اليمنى هيكلاً عظميًا:"انهضِي من سريري وإلاّ سأجعلُ من جسدكِ هيكلاً عظميًا لن يتبقى منكِ سوى العظام !" وجدت نادين نفسها تتصبب عرقًا، شعرت بنسيمٍ قوي اخترق مسامات وجهها التفتت إلى النافذة فرأتها مفتوحة تمامًا كما كانت في الحلم.

صباح اليوم التالي، غادرَ فؤادُ القريةَ مبكرًا لجلبِ الحاجات التي دوّنتها زوجته أمّا هي فخرجت لتتنّزهَ في الشاطئ. رأت كهلاً وحيدًا يجلسُ على صخرةٍ ضخمة، يصطادُ السمكَ في حالةِ تأمل كأنّهُ يمارسُ عبادةً ما، لم يأتِ ليأخذ من البحر شيئًا ولكن ليرميَ إليه بكل أسراره الدفينة. انغمَست بقراءةِ فصلين من كتابها على صوتِ هدير الموجِ ثمّ قرّرت العودة إلى الكوخِ. تفاجأت في المطبخِ بمجموعةٍ من القطط، حملت المكنسة من أجل طردها فخرجت القطط بسرعةٍ من النافذة الواحدةُ تلو الأخرى، أسندت المكنسة إلى الحائط ثم سحبت الكرسي لتجلس عليه لتتفاجأ بقطةٍ ضخمةٍ ماءت في وجهها بشراسةٍ لم تخفها لا المكنسة ولا كوبُ الماء الذي دلقتهُ عليها، جامدة ومبللة جلست القطةُ تحدّق إليها بغضب، لم تجرؤ نادين على لمسها، انزوت في غرفتها تنتظر عودة فؤاد الذي فسّر لها لاحقاً أنّها ليست أكثر من قطةٍ معتادةٍ على الكوخِ.

أمضيا سهرتهما في حفلٍ موسيقي لوقتٍ متأخر من الليل وعندما عادا خلعت نادين حذاءها ورمت بما كانت ترتديه على الكرسي ودون أن تنتبهَ لدقات الساعة الحائطية استسلمت للنوم. ساعاتان وشعرَت بالاختناق، أنفاسُها على وشك النفاد من صدرها، سحبت من فمها خيوط صوف لتجدَ نفسها محبوسة في كيسٍ قماشي! وشيء ثقيل فوقها تارةً يرتفع وتارةً ينخفض، اكتشفت أنّها محبوسة في السرير وفؤاد الذي ينامُ فوقها، حاولت أن تجد فتحةً لكنّه كان مخاطا بإتقان استرجعت في لحظة يأس وجه المرأة التي زارتها بالحلم الليلة الماضية، حاولت أن تصرخ ولكن قِطع الصوف النَتن كانت تهوي إلى حلقها وعندما لم يُجدِ الصراخ بدأت تضرب بيديها إلى الجانب الأعلى للسرير وفي لحظةِ الغيابِ عن الوعي فتحت عينيها لتكتشف أنّها كانت على قيد كابوس آخر! سحبت خيطًا رماديًا من فمها ليكون دليلاً يؤكد أنّ شيئًا من ذلك الكابوس يرتبط بالحقيقةِ إلى حدّ ما.

في اليومِ الثالث اصطحبَ فؤاد زوجته إلى مدينة بجاية، عادت السيارة لتخترق الجبال من جديد إلى جبل
"يما الغوراية" هناك من يروي أنّ غورايا محاربة شجاعة حاربت أثناء غزو الاسبان وهناك من يقول أنّها ليست أكثر من صبيةٍ عذراءٍ هربت من أهلها الذين حاولوا إرغامها على الزواج من رجل لا تحبه، لاذت بالجبل وتحصّنت به إلى أن ماتت وحيدة. بعد النزهة في الجبل أخذها إلى شلالات كفريدة الباردة التي تنزل من الجبل الأخضر ثمّ عادا في نهايةِ اليوم إلى الشاليه.

تمددّت نادين على الأريكة تشاهدُ فيلمًا أمريكيًا ومن فرط إرهاقها غفت بينما تشاهده، عندما استيقظت أحسّت بأنفاسِ أحدهم قريبة جدّا من وجهها، لم تره لكنّها سمعت وقع أقدامٍ تركض على الأرض الخشبية ثم مال الباب يحدث صريرًا وأغلق من تلقاء نفسه، وضعت نادين يدها على قلبها ما حدث اليوم لم يكن كابوسًا، أحدهم كان هنا حقًا لم تره ولكنّها شعرت بوجوده، عاد فؤاد يحمل سندويشات شاورما وقنينات مياه غازية:

– سأخبرك بأمر رغم أنّك ستسخر مني قالت وقد ابتلعت لقمة من السندويش، يبدو هذا البيت مسكونًا إمّا بالجنّ أو بالأشباح.

– أهو كابوس آخر؟

– هذه المرة لم يكن كابوسًا . . . " قاطعها "

– لا تخبرني أنكِ التقيتِ بها، تلك التي هدّدتكِ وطلبت منك الرحيل؟

– شعرتُ أنّ أحدهم كان قريبًا منّي ثمّ سمعتُ وقع أقدام تركض، أغلق الباب من تلقاء نفسه، تصور؟

– لنفترض أنّ البيت هذا مسكون حقًا كما تقولين، لماذا لا أرى أو أسمع أو أعيش كوابيسًا كما تعيشين؟

– لا أدري

– عدم ارتياحكِ للمكان جعلكِ توسوسين وتتخيّلين، نادين إنّه شهر عسلنا دعينا نستمتع به كما ينبغي، منذ جئنا وأنتِ لا تكّفين عن التذمر أولاً البيت الذي وجدتِهِ متسخًا ثم موضوعِ القطط والكوابيس وامرأة تريد أن تجعل منكِ هيكلا عظميًا، بدأت أختنق من كل هذا النكد.

– أخبرني ما هو الزواج؟ إن لم أشاركك بكل همومي وأفكاري وهواجسي، ما الذي أفعله بك إن أردتني أن أشاركك بأفراحي وابتساماتي وأحتفظ لنفسي الهموم والأفكار التي لا تروقك؟

– الهموم التي تستحق!

لا فائدة، لن يصدّقها حتى يرى بعينه ويصغي بأذنه، أنا لستُ مجنونةً، أكّدت لنفسها ثمّة أمورٌ غريبةٌ تحدثُ في هذا البيت ومادمنا سنمضي شهرًا فيهِ ستزعجةُ صاحبةُ البيتِ كما تزعجنِي لأنّه يرفضُ مغادرته، حملت ملاءة ووسادة لتنامَ في الغرفة المجاورة، ما رأته في كابوس تلك الليلة أنّها تذهب إلى الحمّام بقميص نومها الأسود لتتفاجأ بجثةِ طفلةٍ شقراء ممدّدة في الحوض الفارغ وقطط قد انقضّت عليها، قطة سوداء تأكل من ذراعها وأخرى تأكل من فخذها وقطة ثالثة تلتهمُ أصابع قدم الطفلة بشاربين متسخين بالدم، شعرت نادين بالغثيان، لم تمتلك الشجاعة لردع قطط متوحشة كهذه، رفعت القطة الرمادية رأسها وتحدّثت بلغة بشرية: "أرأيتِ ما الذي نفعله بالذي يقتحم بيتنا؟" وقفزت من الحوضِ كي تنقّض على نادين.

استيقظَت.. ومن فوق السطح وصل إلى أذنها صوت مواءٍ قريب، ما لبثت أن رفعت بصرها إليه حتى سقطت قطة رمادية على صدرها وغرست مخالبها متشبثةً بثوبها، صرخت بأعلى صوتها باكية ثم أبعدتها بسرعة راميةً القطة الرمادية على الأرض، ركض فؤاد إليها هلعًا يتبين ما الذي حدث، قالت له بينما تبكي:

"لقد سقطت هذه القطة على صدري من السطح وأنا نائمة، عليكَ أن تخرجني من هذا البيتِ حالاً ! أنتَ تعرفُ أنني أعاني رهابَ القطط.

– لا بأس سأخرجها وغدًا سأصلح السقف، عودي إلى السرير.

عادت إلى سريرها وتغلغلت في حضنِ زوجِها تقرأ آية الكرسي التي تحفظها عن ظهر قلب، تذكّرت وجوه الذين تحبهم، أسعد اللحظات بحياتها وقررت أن تكون أقوى من كل شيء من الهواجس والكوابيس والقطط والأشباح، نامت دونَ أن يعكّر نومها كابوسٌ آخر. في الصباح قبّلت شفتيه الرفيعتين وكانت القبلة إعتذارًا كافيًا لتجاوز المناوشات التي حدثت في الأيامِ السابقة، ارتدت فستانًا قصيرًا أبيض مطرزًا برسومات سوداء كأنّها تعاويذ وتمائم! على رأسها وضعت قبعة صيفية مستديرة لتكتمل أناقتها ثم خرجت بمفردها لتقضي وقتًا طيبًا في التسوقِ.

وضعَ فؤاد طعام العصافير في القفص، غيّر لهم الماء ثمّ تفرغ للاستحمام، كان يغسل شعره بالشامبو حين سمع دندنة نسبها إلى زوجته، لفّ نفسه بالمناشف وعاد إلى غرفته ليتفاجأ بطفلة مريضة! طفلةٌ شقراء بعينين خضراوين ناعستين، لون فستانها أرجواني، وجهها شاحبٌ وتئنُ بشفتين جافتين، هذه الطفلة ليست مريضة فحسب بل إنّها تموت، اقترب منها وسألها: "من أينَ جئتِ، أهي نادين التي أحضرتكِ إلى هنا؟"هزّت رأسها موافقة متابعةً أنينها، مدّت يدها الصغيرة إليه كي يمسك بها، ابتسمت ابتسامة فيها الكثير من الشرّ وفي لحظة خاطفة قامت بعضّ يده بقوّة، صرخ فؤاد بأعلى صوته، شعر بألم لا يحتمل، حاولَ أن يسحب يده من فمها لكنّها كانت تضغط بأسنانها أكثر، في هذه الأثناء دق أحدهم الباب بعنف، تركت هذه الطفلة الخبيثة يده أخيرًا، خرجَ ليفتح الباب بيدٍ خدّرها الألم، تفاجأ بزوجته نادين:

– أنا أدّق الباب منذ نصف ساعة ما الذي كنتَ تفعله؟
– ولكن ... ألم تكوني هنا؟ بالمطبخ تغنين وتغسلين الأواني؟

مرتبكًا، أخبرها عن الطفلةِ المريضة وهرول إلى الغرفة يسبقها ليريها إيّاها ولمّا وصلا وجدا ملاءات السرير مرتبةً كما تركتها نادين قبل خروجها: "أنا متيّقن من أنّ أحدهم كان هنا، اسمعي علينا أن نرحل، أنتِ كنتِ تتذمرين من كوابيس، أمّا أنا رأيت ما رأيت بأم عيني !"
– بالمنطق الذي تؤمن به أنت كيف أصدّق ما تقوله؟ ربما خرجت الطفلةُ من النافذة أو ربما تخيلتَ ما حدث لا أكثر. دعنا نكمل هذا الأسبوع ونرحل إلاّ إن كنتَ خائفًا !
– فلنبق، إن كنتُ خائفًا فخوفي عليكِ أنتِ !

نادين المرأة التي ترعبها قطة ويؤرقها كابوس وتغيظها ذبابة تتحلّى بكل هذه الشجاعة من أجل البقاء أيامًا أخرى، إنّها ليست زوجته التي يعرف، لم يفهم أنّ الموضوعِ بالنسبة إليها أصبح تحديًا لنفسها، لقد كرهت ضعفَها وقررّت أن تبحثَ عن مواطنِ القوةِ في دواخلها. ليلاً.. بدت مثيرةً في ذلكَ القميص الحريري الأبيض، يتجاوز الركبة بشبر ويكشفُ من الصدر عن نهدين طريين، تمددَ فؤاد يراقبها مفتونًا أثناء انشغالها بمسحِ ماكياجها ودهنِ أطرافها بالمرطب، أيقظت فيه الرغبة لممارسة الحبِ كرجلٍ لم يكتشف جسدَ امرأته بعد، وافته إلى السرير وقاسمته اللذة إلى أن هدأ السرير وانطفأ اللهبُ.

نامت دونَ أن يفسِدَ نومها كابوسٌ إلاّ أنّها استيقظت هذهِ المرة على أنين فؤاد ! كان يحلم بزوجته، رآها تقتربُ منه مرتديةً القميص نفسه، ألقت بنفسها عليه وهي تفور شهوةً من جديدٍ. بدت عيناها مختلفتين، الوجه نفسه بعينين خضراوين كأنهما لقطة، ركِبته، رمت بساق إلى اليمين وأخرى إلى اليسار، لمحَ خنجرًا في يدها ذبحته به من الوريد إلى الوريد، شعر بالخنجر يمزق جلد رقبته والدم الساخن يتدفقُ من شرايينه وأوردته. لاحظت نادين أنّ فؤاد يتعرّق فاقتربت لتوقظه في تردد، في تلك اللحظة استيقظ فؤاد وبمجرد أن فتح عينيه رآها تقترب منه وتحدقُ إليه باستغراب بثوب نومها تمامًا مثلما كانت تفعل في الكابوس، الصدمة جعلته يقفز من السرير! لمّا اتجهت إلى المطبخ لتجلب له كوب ماء بدا لها الرواق مخيفًا والمطبخ أشد ظلمة لكن ما إن أنارت المكان حتى شعرت باطمئنانٍ أفضل، تمدّد مجددّا بعد أن أنهى عمر سيجارته ثم نام بصعوبةٍ. لحظة استيقاظِه في الصباح لم يجد نادين إلى جانبه، وجدها في المطبخ جالسةً إلى المائدة تهزّ ساقها قلقًا، غضبًا واضطرابًا، ترفض النظر إليه: ما بكِ؟

استدارت كي تريهِ الجانبَ الأيسر من خدّها وعنقها وحين رأى ما رأى أصابه الهلع، خدوشٌ طويلةٌ وعميقة تبدأ من أعلى وجهها إلى أسفل رقبتها، تشوّه وجهها بفعلِ مخالب قط، اقترب منها كي يمسك يدها، فصرخت بوجهه محذّرة: "إياك أن تلمسني، ألم أطلب منك أن ترحل من هذا البيت؟ ثم كيف لم تسمع صراخي عندما انقضّت عليّ القطة؟

– أنا آسف حقًا حبيبتي، لم أسمع شيئًا، يا الله كان عليك أن توقظيني، هيا لآخذك إلى أقرب مشفى !

– لن أذهب إلى أيّ مكان، سأبقى في بيتي !

– بيتكِ؟ نادين لا تكوني عنيدة قلتُ لكِ تحركي.

أثناءَ توسلاتهِ لها بالقيامِ وهو يحدّقُ مرتعبًا إلى جروحها التي تنزفُ ملطخةً ثوبها الأبيض دخلت نادين أخرى من باب المطبخ حيثُ وجد نفسه بين امرأتين متطابقتين، الأولى جالسة على الطاولة تحدق إليهِ بغضب والثانية تقف أمامَ الباب تنظر إليه باستغراب، تقدّمت منه:

- من أنتِ ومن هذه الجالسة إلى الطاولة؟
- لا أحد . . هدّئ من روعك
- لمَ ألححتِ على المكوث أكثر بهذا البيت؟ ولمَاذا حاولتِ ذبحي أمس بالكابوس واليوم تحضرين في جسدين؟ أنا على وشك أن أفقدَ صوابي، قولي ما اسم خطيبتي السابقة التي عرفتها لمدة خمس سنوات؟

شعرت نادين الجالسة على الطاولة بالغضب لأنّها لم تكن تعرف الإجابة أجابت نادين:

- أسماء.
- ولمَاذا تركتُها ولم أتزوجها؟
- هي التي تركتك من أجل أن تتزوج برجلٍ أكثر منك ثراءً !

اطمأنّ قلبهُ إليها أخيرًا، عانقها وعندما التفت مجددًا إلى الطاولة لم يجد أحدًا، وضّبَا الحقائب على عجل حتى أنهما نسيا الكثير من الأشياء كالمناشف وشاحن التليفون وكتابِ نادين، قاما بتركِ المفتاح عند السيد مختار صاحب الكوخ المجاور وانطلقا بالسيارة دون الإلتفات للكوخ خوفًا من أن تصيبهما لعنته.

انتحار شاب طموح

لأنّني وُلدت جزائريًا وجدتُ أنّه عليّ أن أتحمّل أبناء شعبي رغم فداحة الأخطاء التي لا تغتفر، أجدني مجبرًا على التحمّل والغفران فهم بالنهاية أشقائي. حتى أنّني فكّرتُ بتأسيس حزبٍ للشباب، أطرح عليهم أفكاري السياسية وأحلامي المستقبلية للوطن لكنّ والدي قال الشعب تعوّد أن يمنح ثقته لمن تلوّن شعره بالأبيض وأنت مازال شعرك أسود، السنة القادمة قد أغيّر لون شعري ومشيتي، أقتني بدلات رسمية وسأتحدثُ كثيرًا وسيصفقون لي بوسعي أن أجزم أنني سأكون سياسيًا ناجحًا وقد أترشحُ للرئاسة لأكون بعد بضع سنوات الرجل الأول في البلاد وهاأنا أعدكَ منذ الآن إن أصبحتُ رئيسًا لن أتخلّى عنكَ شعبي العزيز، سأكون وفيًا لكم وللكرسي وإن قلتم لي إرحل لن أرحل سأتقبل شكاويكم برحابة صدر وسأتفهمُ تقلبات مزاجكم!

أمّا السنةُ التي انقضت فلم أكن أصّب اهتمامي إلاّ على دراستي، كنتُ مقبلاً على شهادة البكالوريا. أبي أرادني طبيبًا، أمّي نصحتني بالخدمة في الجيش فكلّما زادت رتبتي زاد المال والمكانة العسكرية في بلد يحكمه العسكر وأختي نصحتني بالفنون التشكيلية أو الأدبية حتى لا تقضي الأفكار السياسية التي برأسي على ما تبقى لي من إنسانية. أمّا عن أمنياتي الشخصية فأنا رجل طموحٌ لي أحلام بعدد شعر رأسي لكن حياة واحدة لا تكفي لتحقيق كل أحلامنا فكيف لي أن أكون طبيبًا ورئيس دولة وطيارًا وربان سفينة وممثلاً وفنانًا تشكيليًا وأديبًا يجيد نسج الروايات! أعتقد لهذا السبب خلقت الأحلام.

التحقت بصفنا صبية ذكية ومرهفة تدعى عبير، هكذا نمتُ وصحوتُ فوجدتني غارقًا في حبِها ومن حسن حظي أنّها بادلتني النظرات والمشاعر نفسها. عندما انتهينا من امتحاناتِ البكالوريا شعرتُ أنني سأكون اينشتاين المقبل! أمّا عبير دخلت حالة اكتئاب معلنة الفشل قبل صدور النتائج وبعد عشرين يوم عُلِقت النتائج في الثانويات. كنتُ سعيدًا لنجاحي حزينًا من أجل عبير. سجّلتُ نفسي في جامعة وهران لأدرسَ الطب البشري، حزمتُ حقيبتي وبدأتُ رحلتي الجامعية القاسية بمبلغٍ متواضع يقدمه لي أبي لا يسد احتياجاتي لذا تطلّب مني العمل كنادل في أحد المطاعم الفاخرة كل مساء. في الإقامة الجامعية قررتُ السكنَ بمفردي، غرفتي في آخر الرواق من الطابق الأخير للعمارة، لا أحد يسكن بالغرفة المقابلة لي لكن يجاورني شابان من ولاية معسكر.

اليومُ تبدأ محاضرتي في الساعة العاشرة غير أني أفقتُ في السابعة، جهزتُ قهوتي ثمّ غسلتُ ثيابي وخرجت. عند عودتي استغربتُ غياب الثياب عن الحبل ! نظرتُ من النافذة فرأيت ثيابي مكومّة على الأرض، أصابني الدوار لأني أعاني رهاب الأماكن المرتفعة، نزلت السلالم متذمرًا أتساءل كيف للملابسِ أن تقعَ على الأرض في جوٍ مشمسٍ كهذا؟ سمعتُ عندما كنتُ أديرُ المفتاحَ في قفل الباب صوتَ أحدهم يتكلمُ في الغرفة، وضعتُ أذني على بابي في حالة تركيز وفي تلك اللحظة فاجأني جاري عندما فتح بابَه بعنف، استغرب تجسسي على غرفتي خصوصًا أنّه يعلم أنني الساكن الوحيد فيها، دخلتُ مسرعًا كي أتجنب نظراته المحرجة وحينَ التفتُ إلى السرير لمحتُ عليه انحناءة كأنّ أحدهم كان جالسًا عليه ! لكن من أين خرج وأنا أقف وراء الباب؟

نمتُ على ذكريات عبير وعلى ضوء ابتسامتها ولفرط ما فكرتُ بها زارتني في حلمي، رأيتني في حديقةٍ عامّةٍ متمددًا على العشب ويداي خلف رأسي وإذ بها تحضر في أبهى حلةٍ لها، جلست على ركبتيها ثم انحنت وشعرها الأسود يهوي على وجهي لتهديني قبلة على شفتيّ تجِب ما قبلها وما بعدها من القبلِ، قاطَعت حلمي ضجةٌ في الغرفة، نومي الخفيف يحدث أن يفسده طنين ذبابة! سمعتُ وقع خف من البلاستيك على بلاط الغرفة! رجلٌ كسولٌ يجرّ خطواتَه فتح الباب ثم صفقه، تسارعَ نبضي وتشوّشت أفكاري أتساءلُ ما الذي حدث للتو؟ بعد بضع دقائق أخرى سمعتُ الباب يفتحُ من جديد محدثاً صريرًا، مشى الرجل متكاسلاً، تثاءب بصوت مسموع ليعمّ الهدوء! يا إلهي! فكّرت: لم لا يكون هذا الصوت قد أتى من الغرفة التي تجاورني؟ كثيرًا ما أسمع موسيقاهم ومناوشاتهم وبالليل تصبح كل الأصواتِ مسموعة.

في الصباح نهضتُ من فراشِي بمزاجٍ سيء، مشيتُ إلى دورةِ المياه بخطوات بطيئة وعينين نصف مفتوحتين، عندما فتحتُ الحنفية خُيّل إليّ للحظة أنّ الماء صار أحمر على أصابعي كالدّم، حتى أستعيدَ تركيزي صرتُ أغمض عينيّ ثم أفتحهما مجددًا، بهذه الحركة عاد للماء لونه أو بالأحرى عدم لونه فليس للماء لون! خلال المحاضرة، كنت شاردًا طوال الوقت أفكّر بعبير الجميلة، أصدقائي الذين تركتهم في تيارت، مستقبلي ومستقبل وطني، ترى كيف ستكون الجزائر بعد خمسين سنة أي بعد قرن كامل من الإستقلال؟ لا أدري، قد يصبح أفضل وقد تؤولُ أحواله إلى الأسوأ، من الأفضل أن أكون رجلاً ناجحًا هنا على أرضي، أحيا بسلوك مستقيم وأنفع غيري بما أقدر عليه، عدا ذلك كيف لي أن أغيّر تفكير شعب بأكمله، إنّها مهمة شاقّة فشل فيها حتى الأنبياء !

أمضيتُ جلّ نهاري في الخارجِ وعندما عدتُ إلى غرفتي مساءً وجدتها موحشةً وكئيبةً، أحسستُ بالضيقِ وأنفعُ مُسَكِنٍ في حالتي هو صوتُ عبير، خرجتُ إلى حديقة الإقامة واتصلتُ بها بعد منتصف الليل، رنّ الهاتف طويلاً في أذني قبل أن ترد وما إن بدأتِ الحديثَ بذلك الصوتِ العميق حتى وجدتني أتوه في دهاليزها. صعدتُ السلالم ولازال صوتها يترددُ داخلي، وجدتُ الرواق مظلمًا، أغلبُ الطلاب نيام، أثناء سيري سمعتُ وقع خطوات أحدهم ورائي كأنّ أحدهم يتبعني كظلي، توقفتُ عن السير فتوقف الذي يلحقني، بإمكاني أن أشعر به، جمعتُ شجاعتي وقررتُ الإلتفات بسرعة لكنني لم أجد أحدًا، أنا الآن لستُ نائمًا بل كنتُ أتمشى في الهواء الطلق، أنا في هذه اللحظة بكامل تركيزي ولا يمكن أن يكون هذا وليد التخيلات، تابعتُ سيري مهرولاً هذه المرة والغريب أنّ الخطوات صارت تهرول أكثر وفقًا لهرولتي، توقفتُ عن المشي، ساد الصمت وشعرتُ بأصابعٍ ربّتت على كتفي مرتين لم يعد الموضوع مجرد صوت يخترق الأذن، فالأصابع التي ربتت على كتفي شعرتُ بها حقًا!

الحلُ الوحيد هو العودة إلى الغرفة حالاً، صراع آخر عشته من أجل أن أنام، أمضيت ساعات أتوسلُ فيها سيدي النوم كي يحضر وأثناء المحاولة سمعت فرقعات متواصلة نتيجة "إطلاق ريح" لو كنتُ مع أحدهم ما كنت لأمنع نفسي عن الضحك وبصوت مرتفعٍ! لكن هذا الموقف مختلفٌ جدّا ولم يكن يدعو للضحك بل تضاعف خوفي حدّ الارتعاب.. ثمّة من يعيشُ معي في هذهِ الغرفة بإمكانه رؤيتي وليس بإمكانِي رؤيته، لا توجد أيّة احتمالاتٍ أخرى، كأن أقول لنفسي أنني أسمع هذا من الغرفة المجاورة ففكرة كهذهِ لا يقبلها المنطق!

تشبثتُ بسريري وغطائي وما لبثت أن نمتُ ساعةً حتى استيقظتُ على صوت أوراقٍ تُقَلّب! أحدهم يذاكر بعد منتصف الليل يتمتم بينما يتصفح الكتب ويقلّب الأوراق، مازالت عيناي مغمضتين، لا العين اليمنى فتحت ولا اليسرى رغبت بتقصي هذا الصوت. بعد دقائق بائسة قررتُ القيامَ بردة فعل، لا يمكنني متابعة ليلي هكذا، رميتُ الغطاء وأضأتُ المصباح وبمجرد أن أنيرت الغرفة، لاحظتُ أنّ كل شيء طبيعي فيها، لم يكن هذا حلمًا، لقد استيقظت على صوت الأوراق وبعد استيقاظي استمرّ الصوت ولم يتوقف! تنتهي الأحلام والكوابيس حال استيقاظنا، بصعوبةٍ عدت إلى النوم ويا ليتني لم أعد:

راودني كابوسٌ يشبهُ الواقع بألمه، رأيتني في الحلم أبكي بالدموع والشهقة كالطفل الصغير، أتقدمُ من النافذة لأرمي بنفسي من أعلى طابق بالعمارة. في ظرف دقيقة واحدة سقطتُ سقوطا عنيفًا، اصطدم رأسي بالأرض فتحطمت جمجمتي ونزف رأسي دمًا يتصاعد الدخان منه لفرط حرارته، على صورةِ ذلك الدم استيقظت هلِعًا، يا له من كابوس مفجع! غادرتُ سريري وصباحٌ جميلٌ يستقبلني، اقتربتُ من النافذة فطارت العصافير، نظرت من النافذة فرأيت الأرض وتذّكرتُ حادثة انتحاري بالكابوس، ابتعدت عنها وأغلقتها. أصبحتُ أمضي جلّ يومي خارج السكن الجامعي ولا أعود إلاّ ليلاً كي أنام.

خارج غرفتي كلّ العالم يبدو طبيعيًا، الناسُ في الجامعة، في الشوارع، في المطعم،كلّ الغرائب التي أعيشها لا تحدث سوى في غرفتي، لولا اكتظاظ الطلاب هذه السنة ولولا خشيتي أن يقابل طلب تغيير غرفتي بالرفض ما كنت لأتردد بالتحدث إلى الإدارة لكن أيّ الإزعاج ألطف؟ إلطاف من هم مثلي من البشر أم إزعاج شبح؟ لأكونَ صادقًا، زميلي بالغرفة الذي لا أراه لم يؤذني حتى الآن، هو يعيش يومه، يذاكر، ينام، يدخل ويخرج، يطلق ريحًا! كلّها أمور طبيعية، ربما بوسعي أن أصادقه، من يدري؟

كلّ هذه الأيام المجنونة التي أعيشها لم تمنعني عن التفكير بها. كيف لي أن أستأصلَ ذكرى عبير من ذاكرتي؟ أنا الطالب المفلس الذي يعجز حتى أن يشتري هدّية تستحقها؟ هكذا أصبحتُ أقضي وقتي، مرة هروبًا من اليقظة المرة إلى النوم ومرة من الكوابيس المرة إلى اليقظة. بمنتصف نومي، سمعتُ أنينًا لرجل مريض يتخبط ألمًا، حاولتُ تجاهل أنينه ومتابعة نومي لكن ذلك الصوت لم يكن يحتمل، كلّمته متوسلاً منه الصمت وكلّما قلتُ أصمت صرخ أكثر، الكلمة مني كانت تجلده كما يفعل السوط، أمضيتُ الليلة أصغي إلى أنينه وانتحابه وبعد دقائق وجدتني في حالةِ توحد معه! أئنُ مثله تمامًا وأضرب بقبضتي الحائط، شيء داخلي كان يعذبني دون رأفة.

وجودهُ معي في الغرفة صار يحبطني وحالتي النفسية بدأت تسوء، كل ليلةٍ أستيقظ بمنتصفها لسببٍ ما، مرّة أستيقظ على صوت كأس زجاجية سقطت على الأرض فانكسرت وعندما أنير الغرفة لا أجد حطام الكأس، استيقظتُ مرة على صوت قهقهة رجل لا يمكنه التوقف عن الضحك ومرّة على صوت تمتمة لشخص يرددُ الكلام ليتمكن من حفظه. عدا كابوس الانتحار الذي يتكرر كل ليلة.

قررتُ أخيرًا زيارةَ طبيبٍ نفسي بسبب كوابيسي، قال فكرة الانتحار تكمن في باطن عقلي "اللاوعي" أجبت: هذا مستحيل، أنا أكره الموت، أنا أكثر الناس تفاؤلاً ما يحدث معي كالتالي أظنّ أنّ جنيًا يحاول سرقةَ جسدي ولأنني أقاومه يعذبني بهذه الطريقة، حاول الطبيب تهدئتي بأعذار لم تقنعني، أعلم أنّه لم يصدق كلمةً ممّا قلت، وصف لي مهدئات وودعني مبتسمًا تلك الابتسامة التي تحملُ في طيتها شفقةً ممتزجة بالسخرية والتكذيب، ابتعتُ المهدئات علّها تساعدني على النوم وبعد تجربتها أدركتُ أنّ وجودها في دمي أو عدمه سيان.

لمعت في رأسي فكرة مجنونة، ماذا لو وجدتُ طريقةً للتعرفِ على زميلي في الغرفةِ شخصيًا؟ أريد أن نجلس معًا على الطاولة ذاتها ونتناقش لأفهمَ منهُ سببَ اكتئابي وكوابيسي، وضعتُ ورقةً ورحتُ أكتبُ له رسالةً: "أعلم أنكّ موجودٌ لأنِي أحسُ بوجودكَ معي في هذهِ الغرفة، أحيانًا تختفي ربما لانشغالاتٍ أجهلها لكنّك تعود دائمًا لتذاكرَ أو تنام ربما أنت واقفٌ الآن أمامي تقرأ كل كلمة فور ولادتها أو ربما أنتَ في مكانٍ بعيدٍ من يدري؟ لكن حالما تعود إلى الغرفة ستقرأ حتمًا رسالتي، ما أريدُ قوله أنّ بداية تعارفنا كانت سيئةً وأرى أنّ علاقتنا يشوبها الكثير من التوتر، هذهِ الطاقة السلبية التي تنتشرُ في الغرفة تزعجني وتوترني، حبذا لو نطوي هذه الصفحة ونبدأ من جديد، مستعدٌ أن أسمعكَ و أجلس إليك وأكون صديقك إن أحببت، أتساءلُ إن كنتَ بحاجةٍ حقًا إلى صديق تتبادلُ معه أطرافَ الحديث؟ ألا تعتقد مثلي أنّه من المناسب أن نتقابل كأيّ راشِدين؟ أنتظر منك ردًا قريبًا! هشام"

وضعتُ كأسًا فارغةً على الورقةِ حتى لا تطيّرها الريحُ إن هبّت من النافذة، ما فعلته بعد ذلك هو أني حملتُ هاتفي وعلبة سجائري وغادرتُ غرفتي باتجاه المسؤول عن الجناح ورغم ما يبدو عليهِ من تكتّم وهدوءٍ دائمين إلاّ أنني قررتُ تولّي مهمة استنطاقه حول الغرفة ٣٩٩:

– جئتُ لأسألك عن الغرفة رقم ٣٩٩، هل كنت مسؤولاً عن الجناح العام الماضي؟

– أنا مسؤول عن هذا الجناح منذ سنوات، لماذا تسأل؟

– هل يمكنني أن أعرف من سكنها قبلي؟

– هذه الغرفة لم تسكن منذ أربع سنوات، آخر من سكنها شابٌ كان طالبًا بشعبة الطب ولكنّه انتحر..

– هل رمى بنفسه من النافذة؟

– يبدو أنّك سمعت عنه!

– سامحك الله يا عمي ابراهيم! لماذا أعطيتني هذه الغرفة ما دام لم يرغب أحدٌ بسكنها؟

– أنت طلبتَ ألاّ يكون لك رفيق وكانت الغرفة الوحيدة الشاغرة، لا أظنك تتشاءم بحادثة انتحار الشاب!

– لستُ متشائمًا ولكن.. لا عليك، ما اسم الشاب الذي انتحر إن كنت تتذكرُ اسمه؟

– طبعًا أتذكرُ اسمَه.. اسمُه عابد.

أصبحت الصورة تتضحُ شيئًا فشيئًا، إنّه يحاول أن يجعلني أعيشَ قصته من خلالِ تلك الكوابيس، فتحتُ الباب فرأيتُ شابًا جالسًا على الكرسي ويضعُ يده على الطاولة، شابٌ أسمر، طويل القامة ونحيف الجسم، شاحب الوجه مثل ذلك المريض بالأنيميا الذي ينقصه الكثير من الدم كي يتورد خدّاه، لا يمكنني أن أنكر ذلك الخوف الذي حاولت أن أخفيه لكنني أغلقت الباب وتقدمتُ منه قليلاً:

– أخيرًا التقينا! لا تدري كم كنتُ أتوق للتعرف إليك.

– ظننتكَ لا ترحبُ بوجودي!

– ربما في البداية لكنّ أفكار الإنسان تتغيرُ مع مرور الوقت.

– لمَاذا طلبتَ رؤيتي؟

– نحن نقيم بالغرفة ذاتها، أشعر بوجودك مثلما تشعر بوجودي من الطبيعي أن أرغب برؤيتك!

– ليس مُهمًا أن تراني، يكفي أن تشعر بي.

– أريد أن أسألك عن تلك الكوابيس، لِماذا أراني بطلا للحادثة ولا أراك أنت، ما علاقتي بما عشته أنت؟

– لماذا لا تقول عنه أنّه حلم لم تجد له التفسير الصحيح بعد؟

– لا تقل لي أنّكَ لستَ نادمًا لأنّك أنهيتَ حياتك يا عابد فأنا لن أصدقك!

– بل صدّق، لستُ نادمًا على الإطلاق!

– غريب، سمعت أنّ الموتى يحسدوننا على الحياة.

– ليس كلّهم، ليس إن كان الموت أجمل من الحياة التي عاشوها.

– لا أعتقد لكن هل يمكنني أن أعرف سبب اختياركَ الموت؟

– ليسَ مهمًا أن تعرف..

قال الجملة الأخيرة واختفى، أصبحَ الكرسي الذي كان يجلسُ عليهِ فارغًا، ترى أهي الصدفة أم أنّه اختارني عمدًا؟ كان عليّ أن أسأله لكنّ تزاحم الأسئلة في رأسي جعلني أعيش حالة من التشويش فلم أدر بأيّ سؤال أبدأ، أتى ورحل دون أن أطرح عليه تلك الأسئلة الحقيقية التي تمنيت إيجاد أجوبةٍ لها. هذا اللقاء الذي جمعني بعابدٍ أعدّه من أغرب اللقاءات بحياتي، انتابني شعور من الرهبة كنت أقاومه متحديًا نفسي، لم أشأ الاقتراب منه أكثر أو مصافحته فقد كنت حذرًا وأردتُ أن أحفظ المسافات بيني وبينه ولا هو شاء الاقتراب!

عندما يحضر الليل تستعيدُ الغرفةُ كآبتها، هذا المساء لم يأتِ عابد ولم يزعجني بتصرفاته المعتادة ورغم غيابهِ لم أتمكّن من النوم إلى أن أغمضتُ عيني في الساعة الثالثة فجرًا، راودني الكابوسُ نفسه للمرة الألف، هبوطٌ سريع وتحطم جمجمة ونزيف دم ساخن يتدفق من رأسي على الأرض، استيقظتُ رافضًا الكابوس ككل يوم وفي الساعة السادسةِ عندما فتحت عيني وجدته أمامي، يقف أمام النافذةِ، يحدّقُ إليّ كما لو أنّه انتظرَ استيقاظي طويلاً، على وجههِ ابتسامةٌ غريبة لم أفهمها:

- أعلم ما تريده مني يا عابد، أنت تريدني أن أنتحر؟
- بل أنتَ الذي تريد!
- مخطئ ! أنت لا تعرفني، أقول لكَ أكره الموت فكيف أفكرُ بالإنتحار؟
- ربما لم تتعرّف على نفسكَ بعد، أليس هذا ما قاله لك الطبيب؟
- أعرف نفسي أكثر ممّا تعرفني وممّا يعرفني الطبيب!

– ألن تدعني أحدثك أوّلاً عن الموت؟ هل تخالني ميتًا؟ أنظر إليّ، أنا حيّ أرزق، جسدي الذي مات، الروحِ لا تموت يا هشام! لماذا تصر على التشبثِ بهذا الجسد الفاني الذي ستغادره عاجلاً أم آجلاً؟ لماذا تريد الانتظار إلى أن يشيب شعرك وينحني ظهرك وتفقد ذاكرتك؟ تعيش حياتك كلّها تحت تهديد خطر الموت، فلتختر مصيرك مثلما اخترتُ مصيري بنفسي!

– لي أحلام كثيرة أودُ لو أحققها.

– عليك أنت تختار إذًا بين الاستمرار بممارسة الأحلام أو الخلود؟ أن تختار بين أن تعيش كل عمرك حالمًا أم تنتقل إلى عالم آخر وتحرر روحك من عبودية الجسد!

– ....

– اقترِب منّي يا هشام! ضع يدكَ في يدي واسمح لي بأن أعلّمكَ كيفَ تعيشُ منذُ اليومِ حُرًا! أصغِ إليّ وحرّر هذا القلب من قفصهِ، هذا الجسدُ سجنكَ يا هشام! حرّر هذه الروح، دعها تسبح في السماء وتركض في البراري وتسافر إلى من تحب، تحرسهم وتحقق أمنياتهم، أقتل الأحزان والفقر والأحلام والخيبة ولنحي معًا حياة الخلود، صافحني يا هشام وكن صديقي.

اقتربتُ منه بخطواتٍ تقودني إليه كالمنوّم مغناطيسيًا ومددتُ إليه يدِي، أمام النافذةِ رفعتُ ذراعيّ كطير ينوي التحليق لأول مرة، شعرتُ بيديه حطّتا على ظهري ودفعتني من الوارء بقوةٍ خارقة، خلال السقوط أدركتُ أنّها النهاية لكل شيء واستوعبت أنّه في ثانية واحدة يمكن أن تتحول الحياة إلى حالة من الموت. لحظةَ الإرتطام، رأيتُ ملكَ الموت يقترب مني بخطواتٍ ثابتة، خاطبتهُ متوسلاً:

– لقد حدث سوء فهمٍ يا سيدي! من الظلمِ أن تسلبني روحي الآن، مازالت لديّ مخططات كثيرة!

لم يجبني، منَ الواضح أنّه لا يحبُ الثرثرة مع جثثِ الناس أو ربما هو معتاد على توسلاتهم !

– سيّدي.. دعني أوضحُ لك أمرًا واحدًا فقط! أنا لم أنتحر إنّها مؤامرة من عابد، أنتَ تعرفه جيّدًا لقد سحبتَ من جسدهِ الروح منذ أربع سنوات في هذا المكان بالتحديد، هو الذي حاول قتلي بدفعي من فوق. يا للمهزلة سيعتقدُ الجميع أنني انتحرت، الجميعُ يعلم أنني شابٌ طموحٌ ! لكن لماذا ترفضُ الإصغاءَ إليّ والتأكّد من لائحة الموتى بحوزتك، إنني أتوسلكَ وأؤكدُ لكَ بأنّكَ لن تخسرَ شيئًا إن تأكّدت!

توقفَ قليلاً وعدّل من وقفته، ابتسم بوجهي وكادَ يضحك لكنّه لم يفعل، نفض يديه ثم استدار ورحل تاركًا إيايّ غارقًا في دمائي وأحلامي. بدا لي حينَ استيقظت أنني نمتُ لبضع ساعاتٍ نومًا عميقًا كالذي يغرقُ فيهِ أحدنا أثناء قيلولةٍ صيفية لكنني في الواقع نمتُ ثلاثين يومًا بلياليها ونهاراتها، وجدتُ نفسي عاجزًا عن الحراك، حولي كلّ أفراد أسرتي الذين اتصلوا لاحقًا بعبير لتأتي لرؤيتي، أخبروني أنني في المشفى منذ شهرٍ، دخلت غيبوبة خشي الأطباء ألاّ أخرجَ منها. سألني أبي:

- لماذا حاولتَ الانتحار يا ولدي ؟
- ....
- أجب والدك يا بني، أخبرنا لماذا حاولت الإنتحار؟ قالت أمي
- ....
- تحدّث هشام، قالت عبير
- أنا لم أحاول الإنتحار يا أبي، لقد كانت حادثة "قلتُ بلسانٍ ثقيل"
- حادثة؟ !
- نعم.. أنا أموتُ ككل الناس ولا أنتحر يا أبي !
- نحن نحمد الله على عودتك وبالمناسبة هذه الصبية التي طالما حدثتنا عنها خطبناها لك أثناء غيبوبتك.
- هذه هي امرأتي !

تجربة الغرفة ٣٩٩ تركت أثرها على شخصيتي، تعلّمت أمورًا كثيرة المشي من جديد والكلام وحتى التفكير بطريقة مختلفة، قبل سنة كنت أخالني قادرًا على تغيير العالم لكن بعد هذه التجربة أدركت أنني لا أعلمُ شيئًا، أصبحتُ أكبح ذلك الفضول داخلي وأجيد توظيفه، التهور قد يودي بالإنسان إلى الهاوية، أردت حشر أنفي في عالم غريب عني ولا يعنيني، ما كان عليّ أن أتطفل عليه بكتابةِ رسائل إلى رجل ميت أو مصافحته محاولاً مخاطبته. حتى اليوم لستُ أعرف من كان عابد حقًا؟ هل كان شبحًا؟ رجلاً معلقًا بين الحياة والموت أم أنّه رجل أنجبه وهمي أثناء ساعاتِ وحدتي ولا ذلك الحوار الذي دار بيني وبين ملَك الموت؟ ترى هل دار حقًا أم أنّه حلم عابر لحظة احتضار؟

عدتُ إلى الجامعة بعد سنة من أجل استئناف دراستي في جناحٍ آخر برفقةِ شابٍ من مدينتي، جلستُ في المطعم الجامعي أتغدى ككل يومٍ، تقدّمَ شابٌ صحراوي أسمر وهزيل. وضعَ صينيته على الطاولة، بدا بائسًا وشاردًا ولا شهيةَ لهُ للأكل، سألته:

– هل أنت طالب سنة أولى؟
– نعم ..
– يبدو أنّك لم تعتد بعد على الجو الجامعي؟
– المشكلة لا تتعلق بالجامعة، أنا لا أنام كل الليل، تحدث معي أمورٌ غريبة، ربما لن تصدقني لكنني أسمع أصواتًا وأرى أطيافًا، يراودني كابوس كل ليلة، أراني أنتحر من النافذة فأسقط على الأرض غارقًا في دمائي!

– يا الله أنتَ تقيمُ في الغرفة ٣٩٩؟

– نعم.. كيف عرفت؟

– هل قابلت عابد؟

– كلاّ لم أقابله، من يكون عابد؟

– لا تحاول أن تعرف، أترك تلك الغرفة حالاً وحاول أن تجد غرفة غيرها وإن لم تغيّر لك الإدارة الغرفة اتصل بي وسأستقبلك في غرفتي ربما علينا أن نقوم بمظاهرة طلابية كي تشمّع تلك الغرفة اللعينةُ بالأحمر!

في غياهبِ الشهوة

كُتب على هند أن تولد في إحدى القرى الصحراوية شمال اليمن وقبل أن تدّرسَ أيّ شيء عن الله والحياة والأدب والحب تم تلقينها كلّ العادات والتقاليد والخطوط الحمراء التي يجب ألاّ تتجاوزها. تعدّ هند من جميلات تلك القرية والواحدة من النساءِ هناك تتفوقُ على غيرها ببياضِ وصفاءِ بشرتِها بقدرِ سوادِ شعرها وعينيها. لهند أهدابٌ غزيرة ومنحنية وحاجبان أسودان يمتدان على طول العينين الواسعتين.كلّما خرجت برفقة والدتها أو شقيقتها وجدت نفسها قِبلةً لكل العيون، تسيرُ بجسدٍ شهي لا يمكن لعباءةٍ سوداء أن تخفي ما يحملُه من مفاتن. حاولَ والدها إقناعَها بضرورةِ الزواج في أكثر من مناسبة بتلميحاتهِ التي لا تنتهي غير أنّها رضيت بلقبِ العانس على منح نفسها لرجلٍ يعافه عقلها أو قلبُها، لم تكن تطلب الرجل الكامل ولكن فقط الرجل المناسب.

دخلت هند إلى غرفة الاستحمام كي تُحَضّر حمّامًا ساخنًا وعندما امتلأ الحوض تعرّت من ثيابها ووقفت أمام المرآة، لأوّلِ مرةٍ تواجهُ جسدها هكذا، لقد تعرّت من التقاليد والخوفِ وعقدةِ العيب، الانعكاسُ منحها شعورًا مختلفًا كالتي تصافحُ جسدها بنظرةٍ محبةٍ ومدهوشةٍ.. مثل امرأةٍ عمياء قدّرَ لها أن ترى في جسدها كل ما كانت تتحسسه وتعجزُ عن رؤيتهِ، استوعبت جودةَ مفاتنها وفهمت لماذا ابنة خالتها تواقة للزواج وتتحرقُ للاجتماعِ بأيّ رجلٍ متوّفر،

الآن فقط فهمت معاناة العوانس، عصبيتهن، غيرتهن، مزاجهن العكِر، المسألة تتجاوزُ الغيرةَ من الأخريات لأنهنَ قادرات على تأسيسِ عائلة، للأنثى حاجات جسدية مثل الأكل والشرب تمامًا عليها أن تلبيها، نعم.. فالجسد أيضًا يعطش و يجوع.

داخل الحوض، بالغت هند بالاهتمام بجسدِها وشعرت أنّها قصرت في حقِه قبل اليومِ كثيرًا، اعتذرت منهُ بلمساتٍ دافئة مررتها على عنقها وصدرها وساقيها وما بينهما، اعتذرت بالصابونِ والرغوةِ وشفرةِ الحلاقة، هذا الجسد الجميل أصبحَ يحتاجُ رجلاً ليترك عليه بصمته الخالدة. أنهت استحمامها الذي استغرق ساعةً من الزمن وارتدت ثوب الاستحمام الأزرق، لفّت شعرها بمنشفةٍ زرقاء ثم اتجهت إلى المطبخِ بوجنتين متوردتين لتعدّ لنفسها عشاءً مميزًا. كان طبق المعكرونة بالصلصة الحارة شهيًا وعصير البرتقال البارد أنعشَ هند بعد حمامٍ ساخنٍ.

فتحت الكمبيوتر الشرفةُ الوحيدةُ التي تطلُ من خلالِها على العالم، وجدت الجوّ الافتراضي مملاً وروتينيًا وبفناء الماسنجر لم يكن أحد من الأصدقاءِ متواجدًا، وضعت يدها على خدّها شاردة وأثناء ذلك سمعت تنبيه وصولِ ايميل جديد، فتحت علبة البريد فوجدت رسالةً من شخصٍ يسمّي نفسه **bigX**، فتحت الرسالة الالكترونية فتفاجَأت بمقاطع فيديو إباحية، رجلٌ يجلس على كرسيّ عريضٍ تركبُه صبية شبقة، احتمالُ حذف الرسالة الإلكترونية أو حظر هذا الشخص لم يكن واردًا، هذا الإيميل كأنّه جاء في وقته، لا ضرر إن شاهدت عملية جنسية بدلاً من التصور هكذا خاطبت نفسها، فتحت مقاطع الفيديو بأصابع مرتعشة وقلب تسارعت نبضاته، ما إن تشاهد مقطعًا حتى تغلقه لتفتح آخر في فضول ونهم، في تلك الغضون شاهدت ما يقارب ثلاثة وثلاثين مشهدًا جنسيًا، بركان من الكبتِ انفجر في لحظة واحدة بمحض سهرة أخذت عائلتها إلى عرس قريبهم.

عمرُها ثلاثون سنة لكنّها لم تشاهد يومًا ما يسمونهُ بالجنس حتى أنّها تخشى لو تلفظ الكلمة بينها وبين نفسها، لم تر في حياتها كيف هو عضو الرجل الذكري، هذا الذي يصفونه مرة بالجزرة ومرة بحبة الخيار! أرادت أن تعرف كيف هو شكله حقًا لكن ما رأته مختلفٌ عن كل ما سمعته، ما كان عليهَا أن تثق بوصف أهل عشيرتها، لم تتوقع أن تكون ممارسةُ الحب مشوقة هكذا ولا عضو الرجلِ بديعًا لذلك الحدّ، شيءٌ لم يخلَق إلاّ ليتصلَ بعضوِ المرأة مثلَ لعبةٍ تتألفُ من قطعتين ولا تعملُ بشكلٍ جيّد إلاّ إن ركّبت ببعضها، ثلاثون سنة من الحرمان واليتم الجسدي، ثلاثون سنة من الجهل الجنسي، لقد تأخر كثيرًا فارس الأحلام هذا والجسد على وشك الذبول، هاهي تقف لأول مرة محاصرة بين الشرف والشهوة لتختار سبيلاً تمضي منه.

شعرت هند أنّ جنية صغيرةً تستيقظ داخلها بعد سباتٍ طويل بينما كانت تشاهدُ شابًا أسود بجسدٍ ضخم يضاجع امرأة شقراء بأسلوب فريدٍ كأنّه فن و موهبة! اندماجُ الألوان بين الأبيض والأسود كان كلوحةٍ فنيةٍ اختلطَ فيها كائنان ذابَا في بعضهما البعض حتى أصبحَ فصلهما عن بعضهما يبدو مستحيلاً! تساءَلت؟ ما الذي يعرفه شبابُ قريتِنا عن هذا الفن؟ داهمَها انفعالٌ داخليّ بعد انغماس بالمشاهدة. رمت ثوب الاستحمامِ أرضًا وقرّرت مدّ يدِ المساعدة لجسدها في محاولة بائسة وانفصام غريبٍ بحيث تُمثل عليه بأنّ من يداعبه هو شخص آخر منفصل عنها وليست هي، استمرّت بذلك إلى أن شعرت بنفسها تغيبُ عن الوعي وتقترب من المراد، تحرّرت من ذلكَ الغليان وصار بإمكانها النّوم أخيرًا. بعد تلك الليلة الخريفية لم تستطع منع نفسِها من المشاهدة كل ليلة بعد أن ينام الجميع. لقد أحبّت إدمانها واعتبرته حقا شرعيًا في غياب الرجلِ الذي يستحقُها.

اليوم السابع من شهر يناير، يومٌ لا يشبههُ أيّ يوم آخر في حياةِ هند، مساءٌ ذهبَ فيه أفرادُ أسرتها إلى المستشفى من أجل زيارةِ خالها عبّاس، راودها الضجرُ فذهبت إلى غرفتها ونزعت ثيابها وحلّيها، فردت شعرها الفاحم على كتفيها. فتحت الكمبيوتر وشاهدت فيديو جديدًا بين عاشقين، تمددت على السرير والتهب جسدها مجددًا، من يراها يرى صبية حسناء تتلوى شبقا مثل أفعى جائعة تنتظر فريستها. بعد دقائق سكنت لنفسها وفي تلك اللحظة شعرت بيدٍ ساخنة تحطّ على ساقها!

ما تملكّها هو الخوف، حاولت أن تمدَ رقبتها لتتبين لكنّها لم تستطع فقد وجدت نفسها عاجزةً عن الحِراك تمامًا، أصبحت تشعرُ بكلتا اليدين الساخنتين تتنقلانِ على جسدها. بقوةٍ خارقةٍ أحسّت أنّ اليدين تفتحان ساقيها، عبثًا حاولت أن تضمّهما فتلك القوة الخارقة تفوّقت عليها، رأت ساقها اليمنى ترتفع منتصبةً بفعلِ فاعل والثانية مثنية على الهواء وكأنّها مثنية على كتفِ أحدهم ولكن لا أحدَ كان موجودًا. شعرت بقضيبٍ يفتح ما هو مغلقٌ، يخترقُها ويغوص فيها أكثر فاكثر، شيءٌ ملتهبٌ ومؤلمٌ كأنّه من جمرٍ، ودّت لو تصرخ وجعًا لكنّها لم تتمكن حتى من الصراخ لأنّ الصوت رفض الانطلاق من الحنجرة ! تغيّر لونُ وجهها وأصبح يتصببُ عرقًا مثل امرأةٍ على فراش الولادة، بعد انتشائهِ، سحبَ المخلوق اللامرئي قضيبه وترك ساقيها تسقطان على السرير.

عند عودةِ عائلتِها إلى البيت لم تسمع الضجّة التي أثاروها أثناء دخولهم فتلك التجربة القاسية عزلتها عنِ الجميع. اتجهت والدتها إلى غرفتِها فأصيبت بالهلع لما رأته! هند عارية على السرير ترتجف بينما تتصببُ عرقًا، مستلقية بوضعية الجنين في رحم أمّه، رمت عليها أقربَ غطاء على جسدها واقتربت تسألها عمّا حدث لكنّ هند لم تكن لا تسمع ولا تجيب، استمرّت بالأنين والبكاء بنشيج متواصل، أدركت السيدة فاطمة أنّ أحدهم تسللَ إلى البيت وقام باغتصابها، ركضت إلى ابنتها الكبرى سميّة : "مصيبة إن فقدت عذريتها !"

قدِمت القابلة صباح الخميس التالي، سلّمت عليهن وشربت القهوة ثمّ تقدمت نحو غرفتها وهي تحاول ارتداء القفازين المطاطيين لكن ما إن حاولت فتح ساقيّ هند حتى صرخت صرخةً سمعها كل من في البيت، خرجت وطلبت من السيدةِ فاطمة وابنتها المساعدة، دخلن معًا، اتجهت سمية إلى ذراعيها ومسكتهما بقوة أمّا والدتها فحاولت فتح ساقيها بعنف غير آبهة لصراخ ابنتها! تمكّنت السيدة ليلى رؤية الغشاء من بين الشفرتين بصعوبة بسبب صراخ هند وممانعتها:

– هذه الفتاة لم تفعلها أبدًا! الغشاء سليم، ليس هناك أي خدوشٍ عليه.. هي لم تتعرّض للاغتصاب ربما مشكلتها نفسية لا أكثر.

– لك الحمد يا رب! "تنهدت والدةُ هند وحمدت"

أحضرت سمية بعض الحليب الساخن وقطعًا من الكعك لهند التي لم ترَ الصينيةَ أمامها، تسمّر بصرها صوب زاوية الغرفة، تنظر إلى الفراغ كالمجنونة! قرّرت الجلوس على حافة السرير ومساعدة شقيقتها على الأكل، لكنّ شفتيها لم تفتحا لتذوق الحليب، حاولت إجبارها على الشرب عبثًا فقد سكبت كل الحليبِ على ثوبها.

ظلّت على تلك الحالة أسبوعًا كاملاً، قرّرت السيدة فاطمة أن تخبر زوجها وأولادها الخمسة دون ذكر أنها وجدتها عارية على السرير ليلة الحادثة، ما حدث بعدها أنّ كل من في البيت أصبح قلقاً عليها وتم جلب طبيب القرية إلى البيتِ، وجد حالتها الجسدية جيّدة، كتبَ لهم تحاليلاً شاملة يجرونها لهند في مخبر المدينة يقرأها لاحقًا لينهي تقريره الطبي.

ألبسوها عباءة ومنديلاً، مشت معهم كالدمية الشاحبة التي لاروحِ لها، أجروا لها التحاليل وهي ليست معنية بما يدور حولها. وفي المساء حضرَ الطبيب مجددًا وفتح برقية التحاليل أمام والدها وشقيقها الأكبر:
"هي تعاني من فقر دم... بالإضافة إلى.. زمّ شفتيه قليلاً ثم أعلن.. إنها حامل"

انهارَ والدها وجلس كالذي أصابه الشلل في ساقيه، كيف حدث هذا وابنته لا تخرج من البيت إلا برفقته أو رفقة والدتها؟ وقف الأخ الأكبر معلنًا أنّ الواجب الآن هو قتلها! حاولت السيدة فاطمة أن تشرح له بأنّ أحدهم تسلل إلى البيت واغتصبها يوم زاروا الخال عبّاس في المسشفى لكنّه نزل السلالم ركضًا وعندما فتح باب غرفتها وجدها جالسة تنظر إلى اللاشيء، نَزَع الحزام الجلديّ من خصره وانهال عليها بسوطه أخفت وجهها واتخذت وضعية الجنين مستسلمةً، تدخلت والدتها مهددةً ابنها بأنّها ستقتل نفسها إن قامَ بقتلها، مسحَ العرق من على جبينه وخرج من الغرفة صافقًا الباب، عائدًا إلى والده الذي لازال غارقًا في الدهشة يستشيره بما ينبغي فعله، ردّ عليه أنّه ليس بمقدروهم أن يفعلوا شيئًا سيتبرأ منها، يسجنها حتى تلد ثم يتخلص من الطفل في دار أيتام وينتهي الأمر.

لم تعارض هند السجن الذي فُرض عليها فهي ماعادت تشعر بوجودها منذ ذلك اليوم المشؤوم، لم تفارقها الكوابيس كلّما نامت تعيش الاغتصاب، تئن ليلاً لا يسمعها أحد، وفي النهار تأكل بشراهة ما يأكله عشرة أشخاص، يومًا بعد يوم صار بطنها يكبر أكثر فأكثر وبالشهر الرابع أصبح بطنها كالحامل بشهرها التاسع! كان يمكن للرائي أن يعلم أنّها ستنجب جنينًا ضخمًا ممّا أثار ذعر والدتها التي تتفحصُ بطنها بيدها وتقول:"يا الله إلى أي مدى سيكبر بطنها أكثر؟"

مرّ شهر آخر لتتمَها بخمسة، جاءها المخاض مبكرًا في الثانية صباحًا، شعرت بكرة بحجم حبّة البطيخ تخرج منها، حاولت أن تصرخ ولكن خانها صوتها مجددًا، ملامحها تغيرت وانقبضت مع انقباضاتِ رحمها، تمنّت الموت ألف مرة أثناء الولادة ولم تشعر أنها تنجب جنينا عاديًا بل جنينًا بحجم رجل ضخم كلّما خرج منها جزء منه كلما اتسعَ أكثر فأكثر، في الصباح فتحت والدتها الغرفة تحمل صينية الفطور وبمجرد أن رأت ما رأته أوقعت الصينية على الأرض دهشة، رأت هندًا مستلقية بوضعية الجنين على طرف السرير وكل الشرائف والملاءات ملّطخة بالدمّ القاتم، أدركت أن ابنتها أنجبت ليلة أمس: أين هو يا هند أين الجنين؟

أشارت بيدها إلى تحت السرير، جلست على الأرض ثم أنحنت لكي ترى فرأت مخلوقًا لا يشبه الإنسان ولا الحيوان، كتلةٌ ضخمة من اللحم اللزج، ليس لهُ أطراف ولا أذنان! لكن لهُ عينان حادّتان تلمعان بلونٍ رمادي يكاد يبدو أبيض وأنفٌ صغيرٌ مُدّبب يشبه أنف القطط أمّا الشفاه تشبه شفتا والدته الممتلئتين! في بطنه حبلٌ سريّ طويل ملتف على نفسه كالثعبان، فكرة سحب هذا المخلوق وحمله كانت فكرة سيئة جدّا من يجرؤ على الإقتراب منه؟

خرجت الأم تصرخ وتنادي كل من في البيت وعندما دخلوا غرفة هند وجدوها نائمةً، رأوا ما تركه النزيف من دمٍ على الفراش الأبيض نظروا إلى تحت السرير فلم يجدوا شيئًا طلبوا من الطبيب الحضور الذي حينَ أتى وفحصها وجدها عذراء وليس على جسدها أية آثار للحمل أو الولادة، استعادت هند وعيها بنفسها وتحدثت إليهم أخيرًا:

– كيف حال خالي عبّاس؟ متى سيخرج من المستشفى؟ ولماذا تأخرتم هكذا؟!

لعنةُ الأصابعِ

لا أحد منكم يتذكر ليلةَ ولادته مثلما أتذكرها، أذكر جيدًا أنني نمتُ طويلاً حتى ظننتُني لن أستيقظ لكنني استيقظتُ على نورٍ أعمى عينيّ الصغيرتين، أدهشني الضوء وأزعجتني الضوضاء وودتُ لو أعودُ إلى رحم أمي،كان بيتًا هادئًا لا شيء ضايقني فيه طوال التسع أشهر سوى موقف واحد، حدث ذات يوم أن اقتربَ منّي جهاز يشبه الكاميرا التقطَ صورةً لعضوي الذكري، غضبتُ لأنهم انتهكوا خصوصيتي ولم أملك طريقةً للتعبير عن ذلك الغضب سوى بضمّ ساقيّ إلى صدري. في ليلة ربيعية قذفت بي والدتي إلى العالم وهي تصرخُ بأعلى صوتها! كانت لحظةً محرجة أن أطردَ بكل ذلكِ الصراخ وأشعر بنفسي عبئًا ثقيلاً عليها، أنجبتني لسوء حظي قائلةً دون أن تتكلم أنّ هذا المنزل ليس لي وحدي عليّ النزول كي تأوي شخصًا آخر الذي هو أخي.

وجدتُ الحياة خارجًا أكثر تعقيدًا ممّا تصورت، تأقلمتُ على مضض محتفظًا بالكثير من الأفكارِ الغريبة لنفسي، في الثانوية كنتُ أسخر من كل الأساتذة إلاّ أستاذة مادة الفلسفة كانت كائنًا غريبا يشبهني وأكثر ما كان يسعدني ابتسامتها الساحرة كلّما طرحت عليها سؤالاً راقها أجابت:رَسُول، لكَ عقل فلسفي لا تتوقف عن طرح الأسئلة !

فعلتُ بنصيحتها فوجدتني أدرس بمجال علم النفس، كان أكثر مجال يناسبني، أن أغوص بنفوس البشر العجيبة وللموضوعِ متعة كمن يغوص بقلوب المحيطات الزرقاء ليكتشف ما تحت الماء.

أحدُ أقداري الغريبة حدث كالتالي، رتبَ لي صديقي موعدًا مع عمّه الذي يعمل مديرًا لتحرير مجلّة آدم وحواء بعد أن عرض عليه موادًا من كتاباتي، آمن بي ذلك الرجل ومنحني الشجاعة اللازمة للبوحِ عن أفكاري الغريبة التي لم أخلني سأمتلك الشجاعة للبوحِ عنها يومًا. هكذا ودون تخطيط وجدت نفسي صحفيًا! هذا القدر الذي جمعنِي بأحبِ النساءِ إلى قلبي سلاف وشيماء.

مازلتُ أذكرُ كيفَ تحدّثت إليّ سلاف أول مرة، انعزلتُ في زاوية مقهى الجامعة أفكّر في الحلم الذي استيقظت بمنتصفه وبينما كنتُ أدفع بالكعكة في فمي دخَلت برفقة صديقتها، كان ابتلاع اللقمة صعبًا عندما نظرت إليّ مباشرة بعينيها الخضراوين، استأذَنت صديقتها ومدّت يدها البضة لمصافحتي، قالت أنها معجبة بكتاباتي الساحرة في المجلةِ وأنّها تبحث عنّي منذ أسبوعين ثمّ عرضت عليّ صداقتها.

جمعتنا لاحقًا دردشات كثيرة لكنني لم أمتلك الشجاعة لمصارحتها عن حبي، لا أعلم ما الذي كان يصر على رسم الحدود بيننا أهو خجلي أم كبرياؤها؟ كل ما كنتُ أعلمه أنني أكونُ سعيدًا بصحبتِها وتلك السعادة الباذخة كانت تنسيني دائمًا بأن أتقدّم خطوة إلى الأمام.

في اليوم الثامن من شهر ماي دعتني لحفل عيد ميلادها، اخترتُ لها عقدًا فضيًا يحملُ فراشة مرصّعة بأحجار خضراء، رأيتُها تتربعُ على عرش الحفلة مثل أميرة أثينية أمّا صديقاتها حولها كنّ كالوصيفات. حينَ رحل الجميع فتحَت هديتي وطلبت مني مساعدتها على ارتداءِ العقد، وقفتُ وراءها وأبعدت بأصابعي خصلات شعرها الذهبي لأصلَ العقد، غازلتها فتقبّلت منّي ذلك الغزل بابتساماتٍ صغيرة تعوّدت على سماعِ الإطراء. وكي أطرحَ عليها سؤالاً شخصيًا تعمّدتُ أن أسألها عن غيابِ حبيبِها عن الحفلة، توقعتُ أن تقول لا حبيبَ لي لكنّها فاجأتني حين قالت: "ليس بوسعه الحضور بينَ طلابهِ فهو أستاذي في الجامعة!" لم تمهلني وقتاً لأستوعبَ ما قالته حتى طعنتني بخبرٍ آخر أنّها حاملٌ منه وستتزوجهُ الشهر القادم، سألتُها بصوتٍ يمنعُ نفسه عن الاستسلامِ للبكاء:

- هل تحبينه؟
- أحبه؟ كلمة كبيرة.. كنت أظن ذلك إلى أن قابلتكَ.

قالتها وارتمت على صدري تبكي، شعرتُ بأنني أغبى رجل في العالم، ضيّعَ حب حياته في التروي والانتظار، أخرجتها من بين ذراعيّ أعرضُ عليها الزواج بيأسٍ لكنّها بنضج السيّدات وهدوءِ الأمهاتِ قالت: "لستَ جاهزًا للزواجِ بعد، كل المستقبلِ أمامك عكسي، ستنساني يا رسول..

الناس يعتقدون أنّهم لا ينسون لكنّهم يفعلونَ دائمًا" قرّبت شفتيها الممتلئتين وقبّلتني، أغمضنا العيون واستمتعنا بلذةِ الحب واللقاء والفراق. أمضيتُ الليل أمشي في شوارعِ المدينة، مررتُ أمام حانةٍ قلتُ أثمل علّني أنسى، ثملت ونسيتُ كل شيء إلاّ اسمها. حبها نفسه الذي جعلني أحبُ حياتي جعلني أكرهها من جديد، عدتُ قليل الكلام والابتسام لكنني مازلت أكتب فالكتابة هي الأكسجين الذي أتنفس من خلالهِ الحياة كما أشتهي.

ذات ليلة باردة، جلستُ أمام شاشة الكمبيوتر أكتبُ مقالاً عن المرأة وكيفَ يتغيّر مزاجها بتغير هرموناتها، أثناء طقطقتي على لوحة المفاتيح وردني اتصال من رقم محجوب، كان لصبيةٍ صوتها عميق وفيه بحة عذبة:

– أأقول مساء الخير أم صباح الخير؟

– الأمر يتوقف على كيف ترينه مساءً أم صباحًا؟

– أراه مساءً، لم تشرق الشمس بعد!

– هل أعرفكِ؟

– لا أعتقد .. المهم أنني أعرفكَ جيّدًا

– أستغربُ كيفَ يستخدمُ الناسُ فعل: "أعرف" بهذا اليقين، ما الذي تعرفينه عني؟

– أعرفُ أنّك رجلٌ حزينٌ أنهكه الحبُ مثلما أنهكته الكتابة.

– مخطئة ! الكتابة لا تنهكني أبدًا.

– عندما نكتب ما لا نريده ينهكنا ما نريد كتابته بحيثُ يقفُ مثل شبحٍ نصب أعيننا يطالبننا بكتابته.

– ربما.. لكنني لا أكتبُ جملةً لا أرغبُ بكتابتها، ما الذي تعرفينه عني أيضًا؟

– أنتَ رجلٌ طويل بكتفين عريضتين وبشرةٍ فاتحة اللون، شعرك شديدُ السواد، عيناك أيضًا، اللحية المشذبة تليق بوجهك، أنت عمومًا رجل وسيم، ترتدي الأسود كثيرًا وإن خلعته فأنتَ ترتدي الأبيض وكأنك لفرطِ صراحتك وصدقك ترفض الألوانَ الوسط والأفكار الوسط، أنتَ لا تحب الكلام لغير حاجة، تنزعج إن تحدّث إليكَ أحدهم من خلف نظارة سوداء، فليس بوسعك الحديث إلى شخصٍ دون النظر إلى عينيه مباشرة لتقرأ ما لا يقوله لك.

– من أنتِ؟

– يقولون عنك صحفي وتقبل هذا اللقب على مضض، أنت تحبُ أن تكتب لمن يقرأ وأن تتكلّم لمن يفهم وعندما تعتقد أنهم لا يفهمونك ترفض الحديث أو الكتابة..

– صحيح!

– أنتَ رجلٌ تذكر جيّدًا فترة مكوثك في رحم أمك وبتفاصيلٍ دقيقة، وددتَ لو لم توجد قط على هذا العالم لكنّ خيار وجودكَ لم تتخذهُ أنت لهذا تحاولُ أن تجدَ لهُ معنى وعيشَ الحياة بما يناسبك، ترحل عن الناس كل ليلة لتعيش في عالمٍ أنتَ خلقته، عالمكَ أنت.

– كيف تقرئين الأفكار التي لم أبح بها لأحد؟

– أخبرتك أنني أعرف الكثير، أراقبك منذ فترة..

– منذ متى؟

– منذ كنتَ تراقبها؟ سلاف

– لابد أنها صديقتك، هي التي أخبرتكِ بكل هذا، كيفَ حالها؟ وهل هيَ سعيدةٌ بحياتها؟

– تريّث يا صديقي! هل تعرفُ عنك سلاف كل هذا لتخبرني عنه؟ كانت مهتمةً بالكاتبِ فيك وليسَ بالإنسان، أنا أيضًا أستغربُ كيفَ يقول أحدهم كلمةً عظيمةً كأحبك وهو لم يحبَ في الآخر سوى لونِ شعرهِ وعينيه، سلاف تمنّت لو تلهمك بكتابةِ قصةٍ ما أي كلّ ما كانت تأملهُ هو أن يخلّدها الأدب لكن بما أنّك مهتم بأخبارها يسرني أن أطمئنك أنّها سعيدة عكسك الذي تعيش في صومعة الحزن منذ أشهر.

– فهمت، حدّثيني عنكِ الآن

– لا أعرفُ كيفَ أتحدثُ عن نفسي، ربما ما يهمكَ حقًا هو معرفةُ من تكونُ هذهِ المرأةُ المجهولةُ التي تتصلُ بكَ ليلاً من رقمٍ محجوب وما الذي تريدهُ منك؟ أنتَ مخطئ إن اعتقدتَ أنني أتطفلُ عليكَ في هذا الوقتِ المتأخرِ من الليلِ لأبدأ علاقةَ حُب.. الحب هو كل ما لا أريدهُ منك، لا طموحَ لي بأن أصبحَ حبيبتك ولا لتحوّلنِي إلى امرأةٍ من حبر، من الأفضلِ أن نكونَ صديقين فحسب والصداقةُ الحقيقيةُ لا تقلُ شأنًا عن الحب.

– حسنًا .. عدا الصداقة ما الذي تريدينهُ منّي؟

– الوقتُ مبكرٌ لأقول

– من تكونين؟

– اسمي شيماء .. صبية تشرينية أنجبنها الخريف ومثلكَ تحيا بالكتابة.

– أيقظتِ في نفسِي الفضول لأتخيّل كيفَ هوَ شكلكِ وملامحكِ، هل ستسمحينَ لي بمقابلتكِ؟

– الوقتُ مبكرٌ أيضًا لنتقابل!

– أرسل لي صورتكِ على الأقل كي تتضّحَ صورتكِ في ذهني

– كنتُ مشتركةً في موقعِ الفيسبوك، إن كنتَ تملكُ حسابًا ستجدني باسم "ملاك المعلّم"

– ملاك أم شيماء؟

– سمّني كما يحلو لكَ يا رسول فأنا لستُ مخلصة للأسماء، ألا تعتقدُ مثلي أنّ الاسم ليسَ أكثر من مشجب لشخصية ما؟ هاهي صفحتي أمامك تجوّل واقرأ نصوصِي علّكَ تتعرفُ عليّ قليلاً، غدًا لنا حديث آخر.

في غرفةٍ مظلمة لا ينيرها سوى الضوء المنبعث من شاشةِ الكمبيوتر وبرفقةِ فنجانٍ من القهوة وأغنيةٍ لفيروز تلصصتُ على صفحتِها، لم تكن فاتنةً مثل سلاف ولكنّها كانت جميلةً إلى حدٍ ما، طويلة ورشيقة، شعرها أسود وطويل وكلّ ما في وجهها صغير، عيناها، أنفها، فمها وذقنها مدبب، تمتلكُ ذلكَ الوجه الذي لا تتملككَ الدهشة إن رأيتَه لكن فيهِ سرٌ ما يجعلك تطيلُ التحديقَ إليه. ما لفتَ انتباهي هو أنّها لم تكن نشطةً، آخر نص نشرته كتبتهُ منذ سنةٍ كاملةٍ، أمضيتُ سهرتي أقرأ لها نصوصًا وقصصًا قصيرة وحينَ وضعتُ رأسي على الوسادة لم أستطع منعَ نفسي من التفكير بها، كيف استطاعت الولوج إلى عقلي؟ في حياتي كلّها لم يعرف أحدٌ عنّي ما عرفته بل كأنّها سمعت أحاديث لم أتداولها إلاّ مع نفسي!

الليلةُ التي تلت تلكَ المكالمة تركتُ كل شيءٍ وجلستُ أحملُ هاتفي أنتظرُ اتصالاً منها، لم أتمكّن لا من الكتابةِ أو القراءةِ ولا مشاهدةِ فيلمٍ أو الاستمتاعِ بأغنيةٍ، كنتُ عاجزًا عن فعلِ أي شيء سوى الحديثِ إليها لكنّها لم تتصل، سأعترف أنّ عرضها لي للصداقةِ بدا لي بخيلاً للغاية وطمحتُ لأن أؤثرَ عليها بطريقةٍ ما لأجعلها تحبني،

الرجلُ منّا حينَ يقابلُ امرأةً تتسللُ إلى دواخلهِ لا يمكنه ألاّ يتخيّلها بينَ ذراعيه ويصنّفها في خانةِ الصديقات وامرأةٌ مثلها لا يقابلها الواحدُ كل يومٍ، نحنُ نقابلُ الجميلات والأنيقات والذكيات والطيبات لكن ثمّة امرأة واحدة بإمكانها أن تتغلغل داخلك لتخرجَ من قاعِ القلب أشدّ الأسرار حميميةً وأكثر الضحكاتِ طفولية وأحرّ الدموعِ، شعرتُ بأنّ شيماء هي المرأة التي يرسمها الرجل في ذهنه ويعتقد أنّه لن يحصلَ عليها أبدًا أويقابلها ولو عن طريقِ المصادفة، انتظرَت ثلاث ليالٍ كاملة لتتصلَ مرةً أخرى حينَ توقفتُ عن انتظارها رنّ الهاتف والرقم لم يكن محجوبًا هذهِ المرّة:

– تأخرتِ كثيرًا حتى ظننتكِ لن تتصلي مرةً أخرى!

– أعلم أنني تأخرت، أردتَك أن تفكّر بمكالمتنا الأولى ليكونَ لحديثنا الثاني معنى، توحشتك!

– لا أدري لماذا يخيفني أن أصدّق!

– ربما تخافُ أن تحبني..

– ما يخيفنِي ألاّ تبادليني هذا الحُب وأنا رجلٌ هشٌ كما تعلمين، خيبةٌ أخرى ستقتلنِي.

– لا أنصحكَ بأن تحبني.

– منذُ متى يصغِي القلبُ إلى نصائحِ الآخرين؟ أخشى أنني بدأتُ أكنُ لكِ مشاعرًا لا يكنّها رجلٌ لصديقتهِ!

– إنّها مشكلتك، لن أتحمّل مسؤوليةِ خيبتك لسببٍ واحدٍ .. أنني كنتُ واضحة.

– ما أقساكِ!

– رسول ما بك؟ ما أعرفه عنكَ أنّكَ رجلٌ ذكي، لن تستسلمَ لعاطفتكَ لتتعلّقَ بامرأةٍ لا تعرفُ عنها شيئًا!

– ما لا تعرفينهُ عنّي أنني رجلٌ مجنونٌ، يمتلكُ من الجنونِ ما يكفي ليصبحَ مهووسًا بامرأةٍ جمعته بها مكالمة واحدة، بالمناسبة هل هذا رقمُ هاتفكِ؟

– نعم لكن لا تتصل حتى أتصل بكَ أنا.

– كما تشائين! هل أنتِ متزوّجة؟

– لستُ متزوّجة ..

– لماذا إذن كلّ هذا الحذرِ يا شيما؟

– أسئلتكَ توترنِي.. هل قرأتَ شيئًا من كتاباتي؟

– وأرسلتُ لكِ طلب صداقة، أخبريني عنكِ قلتِ لستُ مخلصة للأسماء؟ شيماء هل هو اسمكِ الحقيقي أم أنّه مستعارٌ أيضًا؟

– إنّه اسمي الحقيقي.

– بداية جيّدة وما لقبكِ إن لم أسبب لكِ حرجًا؟

– اسمي شيماء الشريف.

– ما يحدثُ معي لا يصدّق، أشعر كأنني عرفتكِ عمرًا في زمنٍ آخر لكن ليس بوسعي تذكركِ، هل تفهمينني؟

– أنا التي تفهمكَ يا رسول.

– بالمناسبة تجيدين الحديث عن الحب، حدّثيني عن حبِ حياتكِ؟

– تعرفتُ عليه بالمستشفى، كانت والدته شريكتي بالغرفة وكان يأتي لزيارتها وبعدها عشقتُه كما عشقني وطلب يدي أمام شاطئ البحر منذ سنتين تقريبًا.

– لمَاذا لم تتزوجا؟

– لأنّه..... فارقَ الحياة!

– أنا آسف جدًا، هل أحببتِ رجلاً بعده؟

– لم أحب ولن أحب.

– أهذا قرار؟

– ليس قرارًا بقدرِ ما هو قدَر إن كنتَ تؤمنُ بالقدر.

سجّلتُ رقمَها بفرحٍ طفولي مثلَ من يسجّلُ شيفرةً ما أو رقمًا متسلسلاً ليشاركَ بهِ في اليانصيب إلاّ أنني لم أشأ إزعاجها باتصالاتي نزولاً عند رغبتها. علمتُ بأنّ أيّة ضغوطاتٍ منّي أو إلحاحٍ سيجعلنِي أخسرُ شيئًا من اهتمامها بي، تبدو من النساءِ اللاتي لا يحبّذنَ الرجال الذينَ يلهثونَ وراءهن كلّما تركَ الرجلُ مسافةً كلّما بدا مثيرًا وجديرًا بالاهتمام. تساءلتُ منذُ متى تراقبني وأينَ تقابلنا؟ هي تصفني مثلَ امرأةٍ جلستَ إلى الطاولةِ المقابلةِ لي في مقهى أي كانت قريبةً بما يكفي لتتأملَ تعابيرَ وجهي ولغةَ جسدي، ربما شيماء كانت زميلة لي بالجامعة لم أنتبه لها وأنا غارقٌ في غيبوبةِ سلاف. ما فعلته هو أنني اتصلتُ بصديقٍ يعملُ في إدارة الجامعة وطلبت منه أن يبحث لي عن اسمِها لكنّه أكّد لي أنه لا يعقل لهذه الفتاة أن تكون ارتادت هذه الجامعة فقد بحثَ في كل الإختصاصات ولم يعثر على اسم شيماء الشريف. فكّرتُ باحتمالٍ آخر إذ يعقلُ أنّها تعرّفت عليّ من خلالِ المجلّة، ربما تنشرُ مقالاتها فيها من وقتٍ لآخر، سألتُ مدققةً لغويةً تراجعُ كلّ مقالاتِ المجلة، أكّدت أنّها لم تسمع من قبل عن ملاك المعلّم.

بعدَ شهرٍ من تعارفنا.. ومن مكالماتٍ تباغتنِي بها كلّما توقفتُ عن انتظارها أخبرتُها أنني ما عدتُ أحتمل إمّا نتقابل أو نتوقف هنا وننسى كلّ ما تحدّثنا بشأنهِ، قلتُ لها: "أنتِ لا تعلمينَ كم أتألّم يا شيْما، أعانِي من حريقٍ داخلي متواصل لا يخمده سوى مكالمة صوتية منكِ تلقي عليّ بذلك البرود في صدري، الاطمئنان بأنكِ لم تفارقِني بعد، أفتقدُ ذلكَ السلام الداخلي قبلَ دخولكِ حياتِي، أشعرُ أنني مهددٌ طوالَ الوقت.. امرأة يحكمُها المزاج تحضر وتختفي كما تشاء، تحدّثِني حينًا بلسانٍ مشتاق تقطرُ كلماته بالعسلِ المصفى وأحيانًا بلسانٍ لاذعٍ باردٍ يجعلُ قلبي يتجمّدُ خوفًا من أن يتلوثَ بذلكَ السم، تعاملني مرةً بحنانِ الأمهات حتى أرغبَ بالموتِ بينَ ذراعيها مطمئنًا ومرةً تقسو بلا رحمةٍ كزوجاتِ الأبِ حين يكرهن أطفالاً عجزنَ عن إنجابهن، قررّي يا شيماء إمّا نتقابل وإمّا نفترق.."

وافَقت على مضض وعرَضت أن يكون اللقاءُ الأوّل في شاطئ البحرِ بعد منتصف الليل، سألتُها كيفَ لا تمانعُ عائلتها خروجها ليلاً؟ أجابت بأنّها سترتبُ حيلةً لنتقابل فهيَ لا ترغبُ بلقاءٍ مملٍ في مكانٍ عام ومزدحم، تريدهُ لقاءً استثنائيًا. ارتديتُ بدلةً سوداء وقميصًا أبيض وربطة عنق سوداء، ثبتُ شعري ورششتُ على ثيابي زخّاتٍ من عطرِ بوس وذهبتُ إليها. لم يحدث أن اعتنيتُ بشكلي لهذا الحد من أجلِ امرأة، رغبتُ بتركِ انطباعٍ جيّد في نفسها لتنجذبَ لي كرجلٍ لا كصديقٍ لا تكترثُ لما يرتديه.

وقفتُ شاردًا في شاطئ حزينٍ أحمل باقة ورد لكنّها تأخرّت كما تفعلُ دائمًا. مرّت ساعة ثمّ ساعتان، أجلس ثمّ أنفض عنّي الرمل وأتمشى جيئةً و ذهابًا، أبحثُ عنها بعينيّ حولي، إحساسٌ داخلِي كان ينبئني بأنّها لن تفوّتَ موعدنا الأول. تقدّمت بخطواتٍ بطيئة ومغرية كأنها حورية تخرج من البحر وهي تغرسُ قدميها الحافيتين في الرمل وتحمل فردتي الحذاء الأسود بيدٍ واحدة. خططتُ للومها على كلّ هذا التأخير لكنّ الجمال الذي أتت عليهِ عقد لساني وجعلني أنسى كل ما خططتُ لقوله، وصلت إليّ أخيرًا، مدّت يدها الصغيرةَ لتصافحني لكنني سحبتها نحوي لأسلمَ عليها بقبلتين، همستُ في أذنها:

– تبدين جميلة ليلاً !

– ليلاً فقط؟

– قصدتُ أنكِ لا تشبهين الصور! وهذه الليلة تشبهين حوريات البحر مثل جنية زرقاء ترتدي فستانًا أسود قصيرًا وضيقًا، أخيرًا التقينا، لا أصدقُ أننا معًا، أنتِ امرأةٌ صعبة ومتعِبة!

- لا تتوقع شيئًا أكثر من اللقاء!

لاذت بالصمت لدقيقة و هي تحدّق إلى عينيّ باشتهاء، مَسَكت يدي فمشيتُ وراءها، كي ندخل الكوخ:

- هذا الكوخ لصديقي، لن يمانع وجودنا هنا.

فتحَت خزانة وأخرجت زجاجة ويسكي وكأسين. صبّت في الكأس وقدمتها لي:

- عذرًا، أنا لا أشرب

- حتى من يدي؟

شربتُ وثملت واشتهيتُها أكثر من أيةِ امرأةٍ رأتها عيناي، تقدّمتُ منها لأقبّلها لكنّها تراجعت إلى الوراء، لم أسمح لها بالابتعادِ، حاصرتها إلى الجدار الخشبي ماسكًا إيّاها من معصميها، ثبتُهما على الحائط وقبلتُها عشرات القبل السريعة والمتلاحقة، على وجهها، فمها، خلف أذنيها وعلى عنقها البارد وصدرها الأملس. آه كم كانت لذيذة ولا يمكن للرجل أن يبتعد عنها، نزعتُ عنها الفستان ودفعتُ بها إلى السرير، مارسنا الحب طوال الليل، كلّما ظننت أننا سننتهي نبدأ من جديد. عندما استيقظتُ صباحًا لم أجد لها أثرًا، وجدت ملابسي أرضًا، السروال والقميص وربطة العنق وسروالي الداخلي، بدأتُ أتذكر ما فعلته معها ولكنّها لم تكن موجودة. استعادةُ ما أمضيناه معًا جعلني أشعر بالإثارةِ من جديد وتفاجأتُ بعضوي ينتصب كأنّه لم يكتفِ من ليلةِ أمس، كيفَ لامرأةٍ أن تغيّر من طبيعة رجل إمّا أن تصيبه بلعنة الخجلِ وهي تربكه بحضورها وإمّا تسقيه بجرعات من الجرأة لتكتملَ رجولتهُ في حضرتها.

توقعتُ أن تتصلَ بي الليلة التالية بعد لقائِنا لنتحدّثَ عن انطباعاتنا ومشاعرنا، أعلمُ أنّ معظمَ العشاقِ يفعلونَ هذا ولستُ أستثنيني منهم، ألا يعودُ العشاقُ إلى منازلهم مشتاقين أكثر ممّا كانوا عليه قبلَ ذهابهم إلى مواعيدهم؟ ألاَ يتصلونَ بحبيباتهم ليخبرونهم كم كنّ جميلات وقاتلات! ثمّ يتذكرونَ تفاصيلَ الكلامِ والملامحِ والضحكات والقبلات والعناقات ولحظات الشبق المؤلمة كم كانت لذيذة، أردتُ أن أخبرها أنّها حينَ مشت أمامي في الشاطئ رأيتها كرجلٍ يرى الأنثى الوحيدة والمتبقية على سطحِ هذا الكوكب وحينَ سلّمتُ عليها وجذبتها إلى صدري رغبتُ بالاحتفاظِ بها إلى الأبد، حينَ دخلتُ جسدها وددتُ لو ألتصقُ بها وأستمرّ بتوحدِي إلى لحظةِ موتِي لكنّها لم تتصل قاطعتني لأيامٍ كالتي ندمت على ما فعلت..

ربما اعتقَدت أنّها خانت ذكرى حبيبها الراحل أو خرقت القاعدة الأولى للصداقة وانجرّت وراء شغفي بها، أيعقلُ أن تنوي قطع علاقتها بي لأنني جعلتها تفعل ما هو ضدّ قناعتها بإخلاصها؟ كل هذهِ أسئلةٌ فتحت أبوابها في رأسي لذا قررتُ أن أخرقَ القاعدة الثانية بعدمِ الاتصالِ بها واتصلت.. لكن الصدمة الكبيرة التي لم أتوقعها هي: "الرقمُ الذي تطلبهُ خاطئ يرجى التأكّد من صحةِ الرقم."

كيف للرقم أن يكونَ خاطئًا وقد اتصلت منه منذ أيام؟ هل يعقل أنّها طلبت إلغاء رقمها من شركة الاتصالات انتقامًا من اندفاعي؟ هذه المرأة ستفقدني صوابي بمزاجيتها وغرابتها، بقيت أيامًا أراقبُ وأتفقد هاتفي علّه يرنُ بين يديّ ويحمل إليّ صوتها وعندما قطعت حبل الأمل والرجاء، اتصلت بي من رقم محجوب:

– كيف استطعتِ أن تفعلي بي هذا شيماء، كيف؟

– إنّها ظروف خاصة .. لابدّ أنكَ غاضبٌ منّي!

– غاضب؟ أرغبُ بقتلكِ.. أنتِ تفقدينني صوابي

– إن كانَ يريحكَ قتلي .. لا أمانع!

– إنّه مجاز أيتها الغبية، أنا أقتلكِ؟ لديّ الجرأة لقتلِ نفسي بأكثر الطرق شناعة ولا أمسَ شعرةً من رأسكِ بسوءٍ

– أنتَ تمنحنِي أكثر ممّا طلبت ولا أعتقدُني أستحق.. المشكلة تكمن في أنني قد أكونُ عاجزةً على منحك ما تستحق.

– لماذا تقرّين هذا؟ لماذا لا تحاولين على الأقل؟

– لا فائدة من المحاولة، يومًا ما ستفهم، عليكَ أن تستعدّ للفراق منذ الآن.

– لن أسمحَ لنفسي بخسارتكِ ثمّ لماذا ألغيتِ رقم هاتفكِ؟

– لأنّك خرقتَ القاعدة الثانية!

– هكذا إذن؟ تعاملينني كتلميذٍ و تعاقبينني بالغياب، بعد كل ما حدث بيننا تختفين فجأةً لتتصلي مجددًا من أجلِ تهديدي بالفراق، لقد تعلقتُ بكِ كثيرًا لكن ليسَ لتلعبي بي مثل دميةٍ بين يديك ترمينها متى مللتِ يا شيماء!

– أنتَ تلومنِي على مشكلةٍ لا شأنَ لي بها، أن تتعلّق بي هذا ليسَ ذنبي.. كنتُ واضحة منذُ البداية، منذ المكالمة الأولى وضّحتُ لكَ كيفَ يجبُ أن تكونَ العلاقةُ بيننا، أصرّيتَ على اللقاء وخيّرتني بينه وبينَ الفراق فأتيت.. تملصتُ منكَ حينَ حاولتَ تقبيلي لكنكَ حاصرتني إلى الجدار، عليكَ أن تتحمّل مسؤوليةَ اندفاعك كرجلٍ ناضج وأقولُ لكَ للمرةِ الأخيرة، لا تتوقع منّي أن أحبك، نحن صديقان تذكّر هذا جيّدًا!

– أنتِ تحمّلينني مسؤولية جنوني لكن فلنكن واقعيين ما حدث بيننا لا يحدث بين الصديقين، هل أنا مخطئ؟ لقد كنت تشهقين وترتعشين بين ذراعيّ!

– لا يحدث بين الأصدقاء لكننا انجرفنا وحدث ما حدث، ليس ضروريًا أن نستمرّ بالانجراف!

– ما الذي تريدينه مني؟ قولي لي هذا فقط

– سأخبركَ لكن ليس الآن، رسول آخر ما أرغبُ بهِ الآن أن نتشاجر، لماذا لا نتحدثُ بموضوعٍ آخر؟

– آه يا قلبي .. تحدثي

– أريدُ أن أسألكَ لماذا لا تكتب رواية؟ أرى فيك كل مقومات الروائي؟

– لا أعلم.. لأنني لا أخططُ لما أكتبُ له و ليست في رأسي حزمةُ مشاريع بأنني أكتب هذا ثمّ ذاك، الأمر لا يهمني لذلك الحدّ ولا أصنف نفسي لا كصحفي ولا كروائي مجردُ كاتبٍ يدونُ ما يمليه عليّ قلبه وقلمه بالإضافةِ إلى أنني لا أملك الوقت لذلك، ماذا عنكِ؟ كم كتابًا كتبتِ؟

– كتابًا واحدًا فقط بعنوان: "امرأة لم تعد عذراء"

– وأين يمكنني إيجاده؟ أريد أن أقرأكِ؟

– ليس كل ما يكتبه الكاتب يرويه. طبعت منه ٣٠٠ نسخة فقط، إن أردت أن تجده إذهب إلي حي الأمير عبد القادر ستجد مسجدًا كبيرًا، تجاوزه لتجد نفسك في شارعٍ ضيّق بنهايته هناك مكتبة ومحلات أخرى، المكتبة لرجل كهل بدعى" الحاج منور" ستجد الكتاب هناك.

عصر يوم الأربعاء.. أنهيت أشغالي مبكرًا واتجهتُ إلى المكتبةِ التي دلّتني عليها،كان وصفها دقيقًا حتى أنني لم أسأل أحدًا للوصولِ إليها، وجدتُ شيخًا يضعُ نظارةً طبيةً ويتصفحُ القرآن، قاطعتُ قراءته بإلقاءِ السلام:

– أرسلني أحدهم إلى مكتبتك، قيل لي أنني سأجد كتابًا لِملاك المعلم؟

– من النادرِ أن يسأل قارئ عن كتابها لأنّه ليسَ كتابًا رائجًا، هل أحضرُ لكَ نسخةً؟

– نعم.. أرجوك.

– تفضّل.. لقد كانت كاتبة موهوبة !

– كانت؟

– نعم.. أقولُ كانت لأنّها توفيت منذ سنة.

– ربما نحنُ لا نتحدّث عن الكاتبة نفسك أو أنّك تخلطُ بينَ امرأتين، شيماء حيّة، أعرفها جيّدًا!

– أؤكّدُ لكَ أننا نتحدث عن المرأةِ نفسها، شيماء اسمها الحقيقي، قامت بنشر كتابها باسم مستعار نزولًا عند رغبة والدها، هل كنت تعرفها؟

– ما زلت أعرفها يا سيدي، هي التي أرسلتني لكَ وهذا رقم هاتفها أنظر؟ أظنّ موتها ليس أكثر من إشاعة

– ما تقوله لا يقبلهُ العقل، أنتَ لستَ بخير!

– لماذا عساي أكذب؟ ما الذي سأجنيه من الكذب؟ أقولُ لكَ التقيتُها منذ عشرة أيام وكانت بصحةٍ جيدة، من أين لي أن أعرفها أو أعرفك؟

– لا حول ولا قوةَ إلاّ بالله، قلت لك هذا مستحيل يا رجل، لماذا لا تفهم؟ شيماء أو مَلك توفيت منذ سنة بحادث سيارة، حضرتُ جنازتها بنفسي وألقيت على جسدها التراب فأنا صديق العائلة وأسكن معهم في الحيّ نفسه، خذ الكتاب وارحل من هنا.

مسكني من كتفي وطردني من المكتبة بدفعة على ظهري، لابدّ أنّه خالني مجنونًا لكنني لستُ كذلك شيماء حقيقية لقد تحدثت إليها وسمعت صوتها والتقيت بها، لمستها ومارسنا الحب لا، لا، لا يعقل أن تكون شبحًا؟ كيف لإنسانٍ أن يصغي إلى صوتِ شبحٍ؟ يقبّله، يعانقه ويولج فيه؟ يا إلهي؟ ما الذي يحدث لي، أنا أجن! دون أن أدري وجدتني أصلُ إلى الشاطئ الذي تقابلنا فيهِ، مشيتُ طويلاً حتى ظننتني لن أجد ذلك الكوخِ القديم الذي دخلناهُ لكنني عثرتُ عليهِ، فتح لي الباب شاب أسمر و قصير القامة:

– مساء الخير، كيف أساعدك؟

– أريد أن أسألك عن فتاة تدعى شيماء هل تعرفها؟

– شيماء شريف؟ رحمها الله ماذا تريد أن تعرف؟

– رحمها الله أي ماتت حقًا؟ يا إلهي.. هل أنتَ واثقٌ من موتها؟

– حضرتُ جنازتها، كانت صديقتي، درستُ معها في الثانوية لثلاثِ سنواتٍ في الصفِ نفسه، كانت صبيةً ذكية، طيبة وتستمتعُ بكتابةِ القصص والروايات، المسكينة لم تنشر سوى كتابًا واحدًا، ظلّت أوراقها مكّدسة في خزانةٍ تغلقها والدةٌ أميةٌ لا تتقنُ القراءة وأبٌ متعلّمٌ لا يكترثُ للأدب، موتها كان صدمةً للجميع، جميعنا نكره الموت حينَ ينتقي أكثر الناسِ تعلقًا بالحياة.

لم أجد ما أقوله له سوى أنني كنتُ مسافرًا خارج البلد ولم يخبرني أحدٌ عن هذا النبأ السيء، عدتُ إلى المنزلِ مصدومًا ومحطمًا مثل أيّ رجلٍ تلقى خبرَ وفاةِ حبيبته للتوّ، كنتُ أصارعُ الحقيقةَ بمنطقي بينَ التصديقِ والتكذيب كلّ الذينَ قابلتهم أكّدوا لي موتَها لكنني قابلتها بنفسي وشعرتُ بها حيةً بينَ ذراعيّ..

تمسكّها بالصداقة، رفضها للحب، هروبها المستمّر، حزنها كلّما حدثتُها عن الحياة، غصّتها أثناء اعترافاتي لها بحبي، اختفاؤها المستمّر، مكالماتها الليلية، قدومها إلى الشاطئ بعد منتصفِ الليل، كل هذا يؤكّدُ أنها نصف حيّة نصف ميتة، صحيحٌ أنني رجلٌ بحاجةٍ إلى الحب والنساءِ كغيري لكن ليسَ إلى حدّ الانفصامِ باختلاقِ امرأةٍ تعجبني كانت موجودةً بالفعل، لستُ نبيًا يأتيني الوحي لأعرفَ عنها كلّ ما عرفت لو لم تقله لي بنفسها.

قررّت أن أجعلَ من شيماء حلمًا جميلاً استيقظتُ منه وأتقبلَ الواقعَ مستسلمًا وأكّفَ عن حبّها الذي كادَ يودي بي إلى الجنون، لم أروِ ما حدثَ معي حتى لنفسي! ببساطةِ الكذبِ كذّبتني وتجنبتُ التفكير بها غير أنّ كل هذا الهروب لم يمنع الحزن من التسرّب إلى قلبي رغم إنكارِي المستمّر للخيبة أعلنتُ حدادًا داخليًا على امرأةٍ تمنيتُها، ذاتَ قيلولةٍ قابلني كتابها على الطاولة يحدّقُ إليّ مستجديًا لقراءته، بعد ترددٍ طويل تركتُ مكاني، ذهبتُ إلى الكتابِ وفتحتهُ لأقرأ الإهداء: "إلى من علّمني كيف يكون البكاء و كتب بشفتيه قدرًا على جسدي.."

غادرتُ غرفتِي إلى عالمها.. وكلّما كان أحدهم يفتحُ البابَ شعرتُ أنّه أيقظنِي من تنويمٍ مغناطيسي حتى أنهيتُ الكتاب في غضونِ ساعات، كان يتألفُ من مئة وستين صفحة، طويتُه وقررتُ بإغلاقه أن أطوي قصتِي معها، صباح الأحد التالي استقبلني صباحٌ جديدٌ يشبهُ حياةً جديدةً سأفصّلها هذهِ المرة على مقاسِ واقعي، سأنسى كما ينسى الناسُ وأولدُ من جديدٍ بلا ذاكرة، اتجهتُ إلى مقرّ عملي، غازلتُ زميلاتي وتحدّثتُ إليهن عن همومهن كي أتجنبَ ورطةَ الحديثِ إلى نفسي وعندما أنهيتُ الدوامَ دعوتُ صديقي إلى مطعمٍ فاخر كي نستمتع بوجبةٍ شهية،

استمتعنا بالجوّ الجميل والأكل والمشروب وغازلنا الغريبات في الشارعِ وسجّلنا في هواتفنا أرقامهن، اكتشفت أنّ الحياةَ خيارات وليسَ من المستحيل استئصالُ ذكرى شبحٍ من ذاكرتي.

في البيت سمعتُ والدِي يتأوّهُ مع آهاتِ أم كلثوم، بعيد عنّك حياتي عذاب، ما تبعدنيش بعيد عنّك. بالطبع لم أسمح لأم كلثوم أن تعكّر مزاجي وغيّرتُ الكلمات ساخرًا: لا نسيت النوم ولا أحلامه، لا نسيت لياليه ولا أيامه، بعيد عنّك حياتي روعة ما تخلّينيش قريب منّك! فلتذهب أم كلثوم إلى الجحيم وكل من يؤمن بعذاباتها، دخلتُ غرفتِي وإذ بي أراها جالسةً على السرير بدمها ولحمها، يا إلهي كيفَ يقولون عن هذا الملاكِ شبحًا؟ إنّها فاتنة في أسوأ حالاتِ موتها! في أشدِ حالاتِ حزنها، أغلقتُ علينا الباب بالمفتاحِ وسألتُها:

– ما بكِ شَيْمــا؟ لمَ وجهكِ حزينٌ لهذا الحدّ؟

– لقد عرفتَ الحقيقة أليس كذلك؟

– ألهذا أنتِ حزينة؟ حبيبتي لو فارقتِ الحياة مليون مرة ستظلين حيةً داخلي ومعي.

– لمَاذا تكذب؟ رأيتكَ تروي نكتًا لزميلاتك! تحدقُ إلى مؤخراتِ الجميلاتِ في الطريق، أنتَ ما عدتَ رسول الذي أعرفه أو ربما رأيتُ فيكَ فقط ما كنتُ أرغبُ برؤيتهِ، خيّبتَ أملي فيك على نحوٍ مؤلم.

– ألم تعجبكِ رؤيتي سعيدًا؟ اشرحي لي كي أستوعب هل تشعرين بالغيرة مني أم عليّ؟

– ما يحزنني أنّك تخلصتَ مني!

– قولي نكتةً غير هذه يا امرأة، كيف تخلصت منكِ وأنتِ تدخلين غرفتي دون إذني؟ وتجلسين على سريري بوقاحة؟ لم لا تعودين إلى قبركِ لترتاحي وتريحي أم أنّ سكان المقبرة لا يُسلونكِ كما ينبغي؟

– كلامك قاس جدًا، أين تبّخرت طيبتك؟ بمجرد أن عرفت أنّني لستُ أنبض مثلكَ تغيّر كل شيء بيننا!

– لقد خدعتِني يا شيمــا، كذبتِ عليّ وأوقعتني في شباكك وأنتِ تعلمين أنّ كل هذا لا ينبغي أن يحدث

– لستَ منصفًا، فعلتُ كلّ ما في وسعي كي لا تحبني لكنكَ فعلت، أمّا بشأنِ الخداع أخبرني كيفَ أقتحم حياتك وأخبرك بالحقيقة خلال المكالمةِ الأولى؟ ما كنتَ لتصدقني ولا لتقبلَ الإصغاء إليّ!

– ربما ما كان يجدر بكِ اقتحامُ حياتي، كان عليكِ أن تقتحمي حياة غيري أو ترضي بموتك ونصيبك

– ومن سيفهمني غيركَ أنت؟ ومن سيصدقني غيرك أنت.. ومن سيحبني؟ رسول أما عدتَ تحبني؟

سألت سؤالها الأخير وهي تقتربُ مني وتحيط بذراعيها عنقي، جفّ الريق في حلقي:

– كيف لي ألّا أحبكِ؟

قبّلتها وشعرت بشفتيها الساخنتين تذوبان بين شفتيّ، جلسنا على السرير مجددًا وأنا أحمل يدها بين كفيّ:

– هل تبقين معي؟

– أنتَ تعلم أنّه لا يمكنني البقاء.. سأرحل قريبًا بعدَ أن تساعدني

– ما الذي بوسعي أن أفعله من أجلكِ؟

– هل قرأتَ الكتاب ؟

– نعم؟

– أأحببتَه؟

– جدّا

– أريدك أن تكمل الجزء الثاني للكتاب!

– هل جننتِ؟ أولاً أنا لا أعرفُ كيفَ تُكتَبُ الرواية ثمّ كيف أكتبُ كتابًا وأنشره باسمك والجميع يعلم أنكِ ميتة؟

– أنا مؤمنة بقدرتكَ على كتابته، كلّ رواياتِ العالمِ بدأت بجملةٍ واحدةٍ، لم أشأ أن تتطور الأمور بيننا ولا أن تتورطَ بي كامرأة لكن حدث ما حدث، كتبتُ جزءً واحدًا ورحلتُ قبل إتمامِ الجزء الثاني، على قصةِ الكتابِ أن تنتهي!

– و لكن

– دعني أكمل.. ستكتبُ الجزء الثاني وستنشره بالعنوانِ نفسه لكن باسمكَ أنت وعندما سيسألونك ستخبرهم بأنّك تأثرتَ بفكرة الرواية، حزنتَ لموتِ كاتبتها فقررتَ أن تكتُب لتكملَ قصتها.

– هل تعتقدين فعلاً أنني سأنجحُ بذلك؟

– مؤكّد

– وبعدها ما الذي سيحدث؟ هل سترحلين؟

– سأرحلُ في الحالتين سواء كتبته أم لم تفعل.

– لديّ شرط واحد بل شرطان.. أمكثِ معي طوال فترة الكتابة ولا تقرئي شيئًا حتى ينتهي الكتاب.

– موافقة!

عانقتني كما لو كنتُ نفختُ الحياةَ في جسدها مرةً أخرى، اعتذرتُ عن الكتابةِ في المجلةِ لثلاثِ أشهرٍ من أجلِ التفرغِ لكتابةِ الرواية، أعارني صديقي شقتَه المفروشة، استأذنتُ والدتي التي حلّفتني ألاّ أحضر إليها فتاة وأقسمتُ على المصحف الشريف أنني لن أحضر إنسية إلى الشقة وهذا القَسَم لم يكن يخصُ قطعًا جنيّتي الزرقاء. موسمُ الصيفِ الذي قضيتهُ معها كانَ أسعد مواسم حياتي، كنتُ لا أخرج إلاّ لابتياعِ ما يلزمني من أكلٍ ومشروبٍ وسجائر، مثلَ زوجين يقضيانِ شهر عسلهما في بيتهما، الجارُ الذي يقيمُ في الشقةِ المقابلة كانَ رجلاً متدينًا يتجسسُ عليّ ويرمقني باحتقار وارتيابٍ لأنّه كان يسمعُ ضحكاتنا لكنّه لم ير أبدًا امرأةً تدخل أو تغادرُ شقتي.

أثناءَ الكتابة كنتُ أطلبُ منها تركي بمفردي ومع مرورِ الوقت تعلّمتُ أن أعرفَ متى تكونُ موجودةً أو غائبة. أعثرُ عليها في المكانِ بحدسي وإحساسي بأنّ ثمّة مكانٌ ممتلئ بها، كان يحدثُ أن تفاجئني وأنا أكتب بقبلةٍ أو عناقٍ، تحضرُ لي القهوة أو الشاي، أتعب فأتمددُ إلى جانبها، نتحدّث حتى نتعب ويتحوّل حديثنا إلى همسٍ ثمّ ننام. نسيتُ فكرة أنني أساكنُ صبيةً ميتةً فوجودها بالنسبةِ لي كان حقيقيًا جدًا. ملمسها، قبلاتها، رائحتها، حرارتها، كيف لي أن أصدّقَ الجميع وأكذبني؟

لم أتوقع أن تصيبني هذه المجنونة بعدوى الكتابة، فكرة أن أصبحَ روائيًا لم تتبادر إلى ذهني يومًا، لعنة الأصابع التي لاحقتها حتى في لحدها ولم تمنحها موتًا طبيعيًا كغيرها، الرواية التي لم تكتمل نغّصت عليها موتها وجعلتها تستيقظ من نومها لتكمل ما بدأت به من خلالي، مهرُ روائية رواية، هذا ما طلبته منّي و هذا ما

منحته لها، أعرتها أصابعي أو ربما أعارتني، ليس مهمًا من منّا أعار الآخر، المهم أنّ شيماء قطعة من روحي وبإسعادها أسعدتُني. كانت نهاية الكتاب هي نهاية كل شيء، هكذا جهزّتني نفسيًا، أنهيتُ الكتاب قائلاً:

– كان بإمكانِي ترك النهايةِ مفتوحة لجزءٍ ثالث ورابع كي أحتفظَ بكِ معي هنا!

– كنتُ لأطمئنَ بقدرتكَ على إتمامهم أيّها اللئيم، وجودي هنا يرهقني، أنا متعبة جدّا وبحاجةٍ إلى نومٍ عميقٍ لا أصحو منه مجددًا، اسمح لي بقراءةِ الإهداء:

"إلى التي علمتني كيف تعاش الحياة و رسمت بشفتيها قدرًا على روحي إلى ملاك المُعلّم"

رأيتُ لمعان دموعٍ شفافةٍ في عينيها بعد قراءتها الإهداء، فقد فهِمَت أنني استوحيت الإهداء منها إليها، حمَلت الكمبيوتر لتقرأ بهدوءٍ ما كتبتُ صفحة صفحة. كنتُ أنام وأستيقظ حينًا أسمعها تبكي وحينًا أستيقظ على صوتِ ضحكتها الطفولية، وفجر يومٍ خريفي هادئ، ودّعتني قائلة:

– ما كنتُ لأكتبَها أفضل منك، أريدُ أن أطلبَ منكَ طلبًا أخيرًا قبل رحيلي، أعلم أنّك أعتدت عليّ كما أعتدتُ عليك لكن بعد مغادرتي لا تحزن لأنّ حزنك سوف يعذبني، عاملني كفصل من روايةِ حياتك كان عليه أن ينتهي.

عانقتُها بقوةٍ وبلا رغبةٍ بإفلاتها، همَست في أذني كلمةً أخيرةً "أحبك!" ثمّ اختفت من بينِ ذراعيّ، رأيتُها تجتازُ ذلكَ الباب وبعدَها لم أرها مجددًا، انتشر الكتاب بجزأيه ليلاقي ترحيبًا لم أتخيّله. كتِبت فيه عشراتُ المقالاتِ النقدية، أصبحوا يطلبونني لإجراءِ حواراتٍ إذاعية ومقابلاتٍ تلفزيونية وهنالك من قام بمقاضاتي معتقدًا أنني كنتُ أخبئ نسخةً من الكتاب الثاني، نشرتها باسمي دون مراعاة حقوق نشر كاتبة ميتة.

رجلٌ على حافة الذاكرة

أخبرتهم أنّ كل شيءٍ انتهى بيننا والجميعُ سعداء إلاّ أنا وأنت، أريد أن أكون لك ولكن لا أحدَ يسمحُ لنا بذلك حتى الله! المثير للسخرية أنني كنتُ أجهل كم أعشقك فأول امتحان للعشق هو الرحيل، لحظة يختفي من حياتكَ فجأةً من تحب ويخلّف وراءه بحرًا من الفراغِ تكتشف أنّ الحياة ما عادت كما كانت، تحاولُ حشو الفراغ بأشخاص آخرين ولكن كل سكّان الأرضِ لو حشروا لن يفيدوا بملء الفراغِ الذي خلّفه شخصٌ واحدٌ يتمثلُ في الحبيب.. نعم إنه الرحيل والغيابُ ما يجعلك تكتشف ما كان دفينًا لأولِ مرة.

أحاولُ أن أجد أعذارًا مناسبةً لهذا الفراق السخيف الذي يشبهُ بهلوانًا يرتدي بدلةً رسميةً! أعلمُ جيّدًا أنّ العيش معك مستحيلٌ كما العيشُ دونكَ وما بينَ المستحيلين أجدنِي أحاولُ أن أجدَ الممكن مثلَ امرأةٍ سقطت من أعلى جبلٍ شاهق وبدلاً من الارتطامِ بالأرض تعلّقت من ثوبها بغصنِ شجرةٍ فلا هيَ فوق ولا هيَ تحت! يحترقُ داخلي ذلك القلب كأنّه ألقيَ بنار جهنّم الأبدية وكلّ ذنبه أنّه اختاركَ أنتْ فالقلبُ أعمى، تصوّر أن يعاقبَ أحدهم فقط لأنّه يرتطمُ بالأشياءِ دونَ قصدٍ؟

نعم لقد ارتطم بك قلبي فوجد فيك الحياة والنور والجمال فاستعصيَ عليهِ تركك، ما أجملك! لو أنّكَ تدري كم أحبكَ أكثر من كلّ شيءٍ، أكثر من الحياةِ نفسها!

الليلة الثانية من شهر آذار كيف أنساها؟ قررّتَ وضعَ حدٍ لتلك المهزلة حتى تتخطى عقباتِ جبني، كنتُ منغمسة مع الممثلة التركية التي كانت تردد باكيةً "الحُب هو كل شِي حلو، الحب هو كل شي مر" سمعتُ أبي يحدّث رجلاً له صوتٌ يشبه صوتك! اختلستُ نظرة من الثقب، قدِمت لخطبتي دون استشارتي، كنتَ لاتزالُ واقفًا تحملُ باقةَ الورد، أحزنني أنّه لم يسمح لكَ بالجلوسِ فورما لمحَ الصليبَ على صدرك، الصليب نفسه الذي صلبَ حبنا إلى الأبد، قدّمتَ نفسك باسم لا يمتُ إلى الأسماء الإسلامية بصلة "جورج" لقد كان الموضوع منتهيًا بالنسبة له. وجدتني أمام بابين إمّا أن أفتح بابك وأتخلى عن كل شيء أو أفتح بابهم وأتخلى عنك أنتْ!

مضى على خيبتنا أسبوعٌ كاملٌ، لا أفعل شيئًا سوى التفكير بك، جثة لازال قلبها ينبض بوجهٍ شاحبٍ وروحٍ على وشك الذبول، أفكّر ليت العالم كان فارغًا من ناسه والسماء من ربّها كي نكون معًا! وقبل أن أستغفر قاطعني رنين الهاتف، كنتَ أنتْ! اتصلتَ بي ثملاً لتودّعني، طلبتَ لقاءً أخيرًا لن أر بعدهُ وجهك في أي مكانٍ، قلت: كوني مطمئنة، سأغادرُ حياتكِ وبعد اليوم حتى الصدفةُ لن تجمعَ بيننا يا هاجر! فهمتُ أنّكَ تختارُ سفرًا بلا عودة، شرحتَ لي كم أنّك تعسٌ ولا تجدُ لحياتكَ معنى، قلت: "كنتِ السببَ الوحيد الذي يجعلنِي أتعلقُ بهذهِ الحياة البائسة والآن بعدَ أن خسرتكِ لا أجدُ أيّ سببٍ يستحقُ أن أبقى حيًا من أجلهِ."

في الساعة الخامسة، صففتُ شعري ولوّنتُ أظافري بأصابعٍ مرتعشةٍ، ارتديتُ فستانًا أزرق وخرجتُ لملاقاتك. رأيتُكَ تسبح تاركًا سروالكَ وقميصك على الرمل، مشيتَ نحوي وعندما وصلتَ إليّ قبّلتني بشفتيكَ المبللتين والمالحتين ثم خلعتَ عني فستاني ورميتهُ إلى ملابسك، سحبتني من يدي لندخلَ البحر، كنّا نسبحُ وحيدين كما لو كان ذلكَ البحرُ الكبيرُ كلّه لنا وحدنا، أحطتُ عنقكَ بذراعيّ وحدّقتُ إلى عينيكَ الجميلتين لأقول:

"أريد مرافقتك" صمت متفاجئا "أفضّلُ الموتَ معك على العيشِ دونكَ يا جورج"

– لستِ مضطرة لذلك...

قاطعتُ كلامكَ بقبلةٍ طويلةٍ عبّرت عن كلّ ما كنتُ أرغبُ بقولهِ، مشينا في الطريق هادئين ومقتنعين بقرارِنا، ابتعنا منومًا قويّا لا يستهلك منه إلاّ ربع حبة ومشرطين، اتفقنا أن نتحدث مرة أخيرة عبر الإنترنت لنمارسَ الإنتحار سويًا. قبل عشر دقائق من الموت اتصلتَ بي وفتحتَ الكاميرا، بدوتَ أجمل من أيّ وقت! شجاعًا غير آبه للموت، أمامكَ علبة الدواء الخضراء وعلى يمينكَ المشرط، قلتَ لي بعد أن لمعت أسنانك ضمن ابتسامة فاتنة:

– مستعدة للموت؟

– أجل!

– أريد أن أخبركِ سرًا مهمًا، هاجر أنا لا أفعل هذا من أجلك ولكن من أجلي.

– حياةٌ دونكَ لا أريدها.

تناولتَ أول حبة من الدواء ثم الثانية والثالثة والعاشرة وكلّما كنتَ تتناول حبة كنت أقلّدكَ كالمنومة مغناطيسيًا وعندما حان وقت تقطيع الشرايين جبُنت لكنّكَ لم تجبن، فعلتها ثم رفعتَ يديكَ لتريني الدم الذي انفجر من معصميك، دقائق وتسارعت نبضاتُ قلبي، ابيضّت عيناي وما عدت أرى شيئًا أمامي.

حينَ فتحتُ عينيّ رأيتُ خلفَ الضباب أشخاصًا حولي تبيّن لي بعدها أنه الطبيب، والدي ووالدتي تبكي، اجتاحني عطشٌ ونعاسٌ حاولتُ مقاومته، طلبتُ من أمّي هاتفها لأتصلَ بكَ وأطمئنَ عليكَ، طلبت منّي العودةَ إلى النوم بعد أن أكّدت لي أنّكَ بخير وتتعافى، أكلتُ جيدًا مثلما طلبوا مني وفي اليومِ التالي استعرتُ هاتف الممرضة، رنّ هاتفكَ أخيرًا، ردّت شقيقتكَ جوسلين:

– ألم يخبروكِ؟ جورج مات يا هاجر وأمس كانت جنازته وتوقعنا أن تحضري، ليتكِ أتيتِ وودعته

– لا! لن أصدّق ما تقولينه يا جوسلين، أرجوك دعيني أحدثه مرة أخيرة ولن أتصل به مجددًا.

– هاجر ! لمَ عساي أكذب؟ أخي مات.. "قالتها باكية ثم قطعت الإتصال "

نزعتُ إبرة المصل من يدي وخرجتُ من المستشفى أمشي مشدوهة إلى بيتك، فتحت لي والدتكَ الباب وحينَ تعرّفت عليّ عانقتني و بكيناكَ طويلاً، تسللتُ إلى غرفتك، وجدتها مظلمة وفارغة، صورتكَ الكبيرة معلقة على الحائط، وجهكَ ما أجمله، فتحت خزانتكَ، ملابسكَ الملونة مرتبة ورائحتكَ مازالت عالقة فيها، جاء والدي لاصطحابي من منزلك، ركبت معه السيارة كالخرساء ألقي عليه اللوم بنظراتي:

– لا تنظرِ إليّ هكذا، لا تعاتبيني لأني رفضت هذا الزواج، لا يمكننا أن ننتقي من الدينِ ما يعجبنا ونترك ما لا يلائم أهواءنا، إمّا أن يترك أو يقبلَ كما هو. أوقف السيارة أمام المقبرة، لأول مرة يعاملني والدي بإنسانية عندما يتعلق الموضوع بالحب، هاأنا أبحث عن اسمكَ بين الأموات! كيفَ أتقبلُ فكرةَ أنّ جسدكَ الذي كانَ ممتلئًا بالحياة يرقدُ الآن تحتَ التراب؟ اعتذرتُ لكَ طويلاً عن استمراري بالحياة، قرأنا لكَ سورة الفاتحة ورحلنا.

* * *

ثلاثُ أشهر أخرى وبدأتُ أصدّق حقيقةَ الموت، تفقد عزيزًا، تبكيه بشدة ثم تتقبل رحيله وتنهض كي تستمر بحياتك، هذا لا يعني أنّك رميتَه وراء ظهرك سيظلُ دائمًا ذلك الجزء المؤلم من ماضيك. عدتُ إلى العمل في شركة الاتصالات، هاجمتني عيون فضولية، الناس هنا ينبشون بأظافر تطفلهم جروحنا التي لا نرغبُ بكشفها لأحد، لا يفهمون أننا أثناء لحظات حزننا قد نفضّل الإختلاء بأنفسنا على الاختلاط بهم أمّا إن فعلنا فنحن نفضّل من يرسم ابتسامة على وجوهنا مثل "كريم" زميلي بالمكتب. لاحظتُ تقرّبه منّي وكيفَ بدأت شرنقة الصداقة بقلبه تتحولُ إلى حبٍ لا أعرفُ كيفَ أبادلهُ إيّاه، تملّكني ذلك العجز الذي يتملّكك عندما تقابلُ متسولاً تُصدّق قصته وتتعاطفُ مع بؤسه لكنك لا تملكُ ما تضعه في يده، انتظرتُ أن يفاتحني في موضوعِ الحب لأفسّر لهُ عجزي لكنه بدلاً من ذلك فاتحني في موضوعِ اكتئابي:

– هل تعتقدين أنكِ وحدك من تعانين في هذا العالم؟ كل يوم يموتُ أطفالٌ، أمهات، عائلات بأسرها ترحل عن الحياة مخلفة يتيمًا واحدًا، أذكر جيدًا وفاة والدتي، كان عمري ست سنوات، لم يكن لي أحد، نشأتُ في ميتم، ليس لديّ سوى وسادتي الطرية التي أمارس عليها كل أحلامي، عاهدت نفسي ألاّ أسمح للحياة بأن تهزمني، هل تعتقدين أنّه كان سهلا عليّ أن أرتدي بدلة واحدة كل العام؟ أشربَ الحليب الذي خفّفه الماء، الوجبة نفسها، اللعبة القديمة نفسها، لم أكن أملكُ حتى حق الملل! لكنني اليوم بخير!

– مررتَ بأوقاتٍ صعبةٍ جدًا ولكن كريم ما أمرّ به مختلف

– أفهمكِ، أنت فقدتِ الحب وليس سهلاً.....

– لم أفقده، ليتني فقدت الحب وظل الرجل الذي أحب على قيد الحياة!

– الهروبُ من الواقع ليسَ حلاً، سأقنعكِ بطريقة أخرى

– لمَ تهتم؟ هل تعتقد أنني لم ألحظ إعجابك؟ هل هو تحد آخر بالنسبة لك أن تنافس رجلاً ميتًا بقلب امرأة؟ أرجوك انزع هذه الفكرة من رأسك فأنا لن أحبك أبدًا، تستحق امرأة أخرى فارغةً من الحبِ تملؤها بهِ.

– أنا أريدكِ أنتِ لكن هذا لا يعني أنّ نيتي أن أنافس رجلاً ميتًا، أريدُ فقط أن أراكِ سعيدة !

عدتُ إلى البيت ولأول مرة منذُ رحيلِ جورج أفكّر برجلٍ غيرهِ! فتحتُ مدونةَ كريم وتصفحتُ صوره، بدا وسيمًا ربما تعمّدت ألاّ ألاحظ قبلَ اليوم، في تلك الأثناء لمحتُ فيديو مفتوحًا في نافذة مستقلة، عندما نقرتُ على **play** رأيت ما عقد لساني من الفاجعة إنّه يتعلقُ بتلك الليلة المشؤومة،جورج يبتسم قائلاً:

– مستعدة للموت؟

تناولَ حبات الدواء، شقّ معصميه بالمشرط ثم رفعَ يديهِ نحوي يريني الدم المتدفق على ذراعيه، رأيتُ نظرتهُ الأخيرة قبل الموت، تهاوى على الكرسي مفتوح العينين، ظل الفيديو يعاد من تلقاء نفسه، لم أستطع إيقافه ولا حذفه، رميت بالكمبيوتر على الأرض وخرجتُ من غرفتي أصرخ باكيةً، أوقفتني أميّ في الرواق أخبرتها عن الفيديو، أعادتني إلى سريري، أخذت الكمبيوتر وأغلقت الباب. في صباح اليوم التالي تحدّث إليّ أخي ونحن نتناول الفطور:

– هاجر لقد فتحت الكمبيوتر ولم يكن به أي فيديو!

– كيف هذا؟ لقد شاهدته أكثر من مرة، حاولت حذفه ولم أستطع!

– ربما كانت برامج الكمبيوتر عالقة وحذِف لاحقًا أي بعد دقيقة أو دقيقتين.

* * *

بعد سنة كاملة.... فتحتُ عينيّ على موعدي الأول مع كريم، انتابني توتر مزمن في معدتي لكنني تشّجعت وذهبتُ إلى شقته، سمعت موسيقى كلاسيكية عندما فتحت الباب، اعترضتني رائحة شهية، ساقتني معدتي نحو المطبخ الذي وجدته خاليًا ونظيفًا لابد أنّه انتهى من إعداد الغداء مبكرًا! في الرواق وضع شموعًا وعلى الأرض نثر وردًا أحمر، تابعت سيري نحو غرفته وحينَ أمعنتُ النظر تبيّن لي أنّ ثمّة رجل آخر يجلس على السرير، التفتَ إليّ بسرعة لأرى وجهَ جورجِ:

– مفاجـأة أليس كذلك؟

– لا أصدّق ما أراه!

– بهذه السرعة هاجر؟ جئتِ لتمارسي معه الحب على هذا السرير؟ قولي هل كنتُ أملكُ ما هو أغلى من الروحِ لأهبه لكِ؟ كان عليكِ أن تموتي معي لنحيا معًا لكنك كنتِ جبانة وأنانية، ظننتكِ تبادلينني الحب، أخفى وجهه وراءَ كفيّه وأجهشَ يبكي

– مازلتُ أحبك .. "اقتربتُ منهُ دون خوف"

تراجع إلى الوراء وحينَ حاولت لَمسه سقط من النافذة كأنني دفعتُه باقترابي منه، رأيته يرتطم بالأرض، مات للمرة الثانية أمامي، قتلته مجددًا مرة وأنا أحبه ومرة وأنا أحبُ غيره، حملتُ حقيبتي وخرجت من البيت أركض باكية. حتى كريم الذي تحمّلني لسنةٍ كاملةٍ لن يصدّق ما سأحكيه له، حتى والدتي ستكّذبني، الموتى لا يعودون إلى الحياة لكن ماذا إن عادوا؟ هل سيأخذون ما يريدونه ثم يرحلون؟ أم أنهم سيزاحموننا في الحياة إلى أن نلتحق بهم، فقط لو سمح لي بعناقه وتقبيله لأشفي غليل الشوق لكنّه عاتبني ورحل دون توديع..

اتصل بي كريم مستغربًا:

– لماذا غادرتِ قبل أن آتي؟

– لقد توعكتُ قليلاً!

– حبيبتي هل اعتقدتِ أنني سأرغمك على ما لا تريدين القيام به؟ أخبريني.. ما الذي يحدث معكِ؟

– هل ستصدقني؟

– طبعًا سأصدّقكِ!

– لقد رأيتُ جورج في شقتك!

– هاجر أرجوكِ ليس مجددًا .. ما الذي حدث هل تذكرته هناك وأنتِ بمفردك؟

– لم أتذكره، أقولُ لكَ رأيته، كانَ جالسًا على سريرك وتحدث إليّ!

– هل تدركين ما الذي تقولينه يا هاجر؟ أنكِ قابلتِ رجلاً ميتًا؟

– كريـم عليك أن تصدقني!

– عليّ اصطحابكِ إلى طبيبكِ ربما الدواء الذي تشربينه يسبب لك هلوسات!

– لم لا تصدقني؟

– لأنّ كلامكِ لا يقبلهُ العقل !

أقنعنِي الجميعُ أنّني تخيّلتُ لقائي بجورج والطبيبُ الذي حاورنِي ضاعفَ لي من جرعاتِ الدواءِ كي أنامَ نومًا عميقًا بلا كوابيس، مرّ شهرٌ آخر وكل ما في كريم يشّجعني على الزواجِ منه، أخيرًا قلتُ له "نعم" وبدأنا الاستعداد للزواج، اتجهتُ إلى محل فساتين الزفاف، لم يكن المحل بعيدًا عن بيتنا لذلك ذهبتُ إليه مشيًا، توقفتُ أبحث في حقيبةِ يدي عن منديل وعندما رفعتُ رأسي وجدتُه أمامي "جورج" تفصل بيني وبينه خطوةٌ واحدةٌ:

- ستتزوجينه؟
- جورج؟!
- وعدتني أن تخلصي لي! كيفَ استطعتِ حبَ رجلٍ غيري؟
- لمَاذا تفعل هذا بي؟ "سألتُه باكية" فقط لو كنتَ هنا حقًا!
- مازال الوقتُ مبكرًا!
- سألحقُ بكَ عاجلاً أم آجلاً!
- أنتِ لا تفهمين أنّكِ إن تزوجتِه سأخسركِ إلى الأبد!
- أنا جبانة ! ما عدتُ أصلحُ لا للحياةِ ولا للموتِ، لن أتمّكنَ من قتلِ نفسي لأجتمعَ بكَ يا جورج
- ألا تفتقدينني على الإطلاق؟
- لا أفتقدُ سواك! كأنني خسرتُ بخسارتكَ عينيّ اللتين أرى بهما العالم
- وجودكِ معهُ يعذّبنِي، زواجكِ منهُ سيقضي على ما تبقى منّي !

قال جملته الأخيرة بينما يبكي كطفل وعدَته والدته بألاّ تهجره لكنّها خانت وعدها، بكاؤه حطّم كل أوثانِ الفرح داخلي، الناس يحدّقونَ إليّ كما ينظرون إلى مجنونةٍ ولكنني لا أكترث لنظراتهم، اقتربتُ منه لأضع وجهه بين كفيّ لكنه كان يتراجع إلى الوراء حتى دهسته سيارة أمامي واختفى تحت عجلاتها، سقطتُ على الرصيف، أبكيه وأبكيني، جاءت والدتي تركض باتجاهي، أنهضتني ونفضت عن ثوبي الغبار وأخذتني إلى البيت:

- اتصلت بي جارتنا قائلة أنها رأتكِ تتحدثين إلى نفسك! ماذا دهاكِ؟ ما الذي سيقولوهُ عنكِ الناسُ قبل أسبوعين من حفلِ زفافكِ؟
- لقد رأيته، كان واقفًا هناك يبكي لأنني سأتزوجُ من كريم، بدا تعسًا ومحطمًا يا أمّي !!

– جورِج مات والموتى لا يعودون إلى الحياة، هل تفهمين؟ "صفعتني بصفعتين على وجهي"

– ما كانَ عليّ أن أعيش.. لماذا لم تتركوني أموت بسلام؟ لماذا؟

– حبيبتي لا تقولي هذا، أنظري إليّ، لن أسمح لكِ بإفسادِ حياتكِ!

– لن أتزوّجَ من كريم يا أمّي، جورج لن يسامحني!

– بل ستتزوّجينه، موتهُ لم يكن ذنبكِ، ألم تكن فكرةُ الانتحارِ فكرته؟ أليسَ الذي اختارَ أن ينهي حياته بمشيئته، هل تذكرينَ آخر ما قالهُ لكِ قبلَ أن يموت؟ قال أنا لا أفعلُ ذلكَ من أجلكِ بل من أجلي!

– كانَ عليّ أن أمنعه !

– كان قدرهُ أن يموتُ و كانَ قدركِ أن تعيشي بعده

– لكنّه يعود دائمًا ليعاتبني ويطلب مني الرحيل معه.

– لا أفهمُ ما الذي يحدث لكِ.. لكن إن حدث ورأيته تجاهليه !

* * *

وقفتُ أحدّق إلى انعاكسي في المرآة، الفستانُ الأبيض كالذي حلمتُ بهِ أثناءَ مراهقتي مشدودٌ حتى الخصر ثمّ يتفضفض حولي كثوبِ السندريلا الخرافي، تسريحةُ شعري بسيطة.. طلبتُ من المزّينة أن تمنحني لونًا ذهبيًا وخصلات متموجة، ركبنا سيارةَ الليموزين أنا وكريم، قبل دخولِ القاعةِ جّهزتُ نفسي لاحتمالاتِ ظهورِ جورج وتجاهله، توقعتُ أن أراه في أيّ مكانٍ، جالسًا إلى أيةِ طاولةٍ تقابلنا إلاّ أنّهُ لم يأتِ ليفسد زفافي كأنّه يجهلُ موعده، غيابهُ بقدرِ ما أراحني

بقدر ما جعلني أفكّر فيهِ قائلةً في صمتي:"كان يعقلُ أن يكونَ جورج حيًا والرجلَ الذي أتزوجهُ اليوم!"

في غرفةِ نومنا، فكّ كريم الرباط الخلفي لفستاني وشرعَ بتقبيلِ ظهري، في البداية لم أشعر برغبةٍ بممارسةِ الحُب.. كنتُ مرهقةً وأعانِي من الصداع بسبب صخبِ الاحتفال كل ما كنتُ أريدهُ أن أحظى بنومٍ عميقٍ لكن كانَ ليفّسرَ الأمر بأنني لا أحبهُ، عندما التفتُ إليه لنفتتحَ الجماعَ بقبلة أيقظَ في نفسي الرغبةَ النائمة وجعلنِي أستجيبُ لمداعباته وبينما كانَ يولجُ.. نظرتُ إلى يميني فإذ بي أرى جورج جالسًا على الكرسي يحدقُ إلينا بعينين غاضبتين مليئتين بالاحتقارِ لكلينا، خمدت رغبتي لكنّ كريم لم ينتبه لأنّه كان منشغلاً بشبقه:

– مبارك! تزوجتِه رغم كل توسلاتي، لابد أنكِ تحبينه جدًا حتى تخسريني من أجله!

واصل استفزازي، يولعُ القداحة بيدهِ اليسرى ثم يطفئها، انتهى كريم أخيرًا وتمددَ إلى جانبي، خجلتُ من عريّ في حضرةِ جورج، سحبتُ الغطاءَ ودثّرتُ به جسدي، لقد أفسد الليلة التي كان يفترض بها أن تكون الأجمل، أخشى أنني بدأت أكرهه! ألهذا يفعل هذا؟ ألأنني أصر على نسيانه يصرُ على الحضور؟ أفكّر الآن لو أنني التي مِتُ وظل هو على قيدِ الحياة، أراه يغازل فتاة أخرى، يداعبها كما كان يداعبني ثمّ يقررأن يتزوجَها بعد سنة من رحيلي. كنتُ لأعودَ من الموتِ ألف مرة لأطرحَ عليه السؤالَ نفسه:"أما عدتَ تحبني ؟"

في الصباح، نظرتُ إلى انعكاسِ وجهي المتعب بالكاد تعرفتُ عليّ، حضّر كريم وجبةَ الإفطار، ساعدته على حمل الأطباق إلى الصالون، هناكَ رأيتُ جورجِ ينتظرنا، جلس كريم على رأس الطاولة وأنا على يمينه وجورج على يساره، لم أستطع لا التحدث ولا حتى الأكل بارتياح وهو يفتح موضوعًا عن ليلة أمس بينما جورج يراقبنا بفمٍ صامتٍ، لم يكن بحاجة إلى التحدث كي يزعجني حضوره كان كافيًا لإرباكي. خرجَ كريم ليبتاع الجرائد وعلبة سجائر، قبّلني مودعًا بأنّه لن يطيل الغياب.. أغلقتُ الباب وراءه والتفتُ إلى جورج، قال ساخرًا:

– هانحنُ وحدنا مجددًا!

– لن ترحل أبدًا أليس كذلك؟

– لستُ واثقاً بعد، عليكِ أن تتركيهِ فورًا لتنهي هذه المهزلة!

– عرفتني بما يكفي لتعلمَ أنني عنيدة، لو أنّكَ ظللتَ غائبًا كنتُ لأحتفظَ بحبكَ في قلبي لكنّه يتسربُ منهُ كلّما رأيتكَ أمامي، أنتَ لا تفهمُ أننا نحبُ الموتى بذلكَ العمق والتعاطف الذي لا نكنّه للأحياء، لكنّك ما عدتَ ميتًا ولا حيًا، مسخٌ يضايقني حضوره، إن كنتُ أندمُ على شيءٍ في هذهِ اللحظة فهو أنني أحببتكَ ذاتَ يوم.

وجّهتُ لهُ كلّ هذا الكلامِ بينما أنظر إلى عينيه مباشرةً لم يجبنِي بكلمةٍ مثلَ رجلٍ تلقى رصاصةً مباغتة في الظهر لم تمنحهُ وقتًا لاستيعابِ كيفَ اخترقت جسده أو من أطلقها أو لماذا، تلاشى كالضبابِ وأصبحَ المكانُ الذي كانَ يقفُ فيهِ فارغًا، سحبتُ نفسا طويلاً وانشغلتُ بإعدادِ الغداء. حينَ عادَ كريم تبادلنا أطراف الحديث عن كل شيءٍ عدا جورج، لم أرغب بأن أعكّر مزاجهُ بكلّ ما يحدثُ معي كما أنّه لن يصدقني على أيةِ حال. بعد تنظيفِ المطبخ ساقني التعبُ إلى سريري لأحظى بنومٍ عميق لم أستيقظ إلاّ في السادسة مساءً، وجدتُ كريم يجلسُ على

الأريكةِ عابسًا بينما يلامسُ بأصابعه جهاز الأي باد:

– ما بك كريم؟ تبدو غاضبًا!

– لا شيء!

– كريم ، أصحبنا متزوجين.. لا يجدر بكَ إخفاء شيء عني!

– حسنًا.. أعلم أنّه ليس من حقي أن أحاسبك على ماضيكِ ولكن لم أتوقع أن تحضري معكِ تلك العلبة التي تحوي كل ذكرياتك معه، تمنيتُ لو تتجاوزي ما عشتِه لتبدئي حياةً جديدةً معي!

– عن أية علبةٍ تتحدّث؟

– العلبة الخضراء التي تحوي عشرات الصور معه، هداياه لكِ، عطور، دُمًى، حليّ ملابس داخلية! رسائل غرامية منه وإليه، لقد خاب أملي حقًا أن أجد هذا بعد ليلة واحدة من الزفاف، أنا رجل ولديّ كبرياء رغم كل شيء، بجلبكِ تلك العلبة، أسأتِ إلي وقللتِ من إحترامي!

– كريـم.. كل حياتي السابقة تركتها ورائي، لقد فاجأتني فأنا لم أجلب معي أشياء كهذه !

– ما الذي تريدين قولَه.. أنكِ أحضرتها دون قصد ولم تنتبهِ أنّها بين أغراضك؟

– لم أحضرها لا عن قصد ولا عن غير قصدٍ !

– هل زحفت العلبةُ وصولاً إلى شقتنا ثم تسللت من النافذة وقفزت بين يديّ؟

– كريم لا تسخر مني، يا إلهي لابد أنّه هوَ من وضعها هنا كي يخلقَ مشاكلاً بيني وبينك

– طبعًا من السهل أن تلقي اللوم على رجل ميت.. هل لما تتفوهين به اسم غير الجنون؟

– لستَ مضطرًا للعيشِ مع امرأةٍ مجنونةٍ، يمكنكَ تصحيحُ غلطتك وسأساعدك بذلك لأنني سأعود إلى بيتنا حالًا

– ما الذي سيقولونه عنّا؟

– لا يهمني، ربما معك حق فأنا لا أستحقُ رجلاً مثلك، ربما أنا مجنونة حقًا ولكن لا تنس أنّكَ من اقتحمَ حياتي ربما كان عليك أن تتركني لجنوني "عانقني يقول":

– أعلم أنّ ما مررتِ به صعب ولا يحتمل وأنا أبذل مجهودًا منذ سنة كي تمضي قدمًا

– ألا تعتقد أنني أبذل مجهودًا أيضًا؟ أنتَ لا تملكُ أدنى فكرة عمّا أعيشه بيني وبين نفسي!

– أعلم حبيبتي.. تحمّليني، شعرتُ بالغيرةِ وفقدتُ السيطرة على أعصابي، ألا يحق لي؟

أنهى الشجارَ بعناقٍ وقبلةٍ ثمّ دخلَ ليستحم فذَهبتُ لتفقدِ العلبة،كان فيها كلّ أشيائنا المشتركة، تذكاراتنا، هدايا أعيادِ الحُبِ والميلاد وكل الصورِ التي التقطناها في أسعدِ أيامنا لا تبعثُ اليومِ سوى الحزن فينا، كلّ ما كنتُ أجتهدُ بنسيانهِ لسنةٍ كاملة جرفني دفعةً واحدةً، قررتُ إضرامَ النارِ في كلّ ما بينَ يديّ:

– ما الذي تفعلينه؟ أنا لم أطلب منك أن تحرقي شيئًا، فقط تمنيتُ لو تبعديها عني

– أنت لم تطلبْ، كنتُ بحاجةٍ إلى حرقِها لأحرقَ معهَا كل ما مضى!

– تخلّصي منها إذن وجهّزي نفسكِ كي نتعشى خارج البيت.

اصطحبنِي كريم إلى مطعمٍ جميل، جدرانهُ حمراء وأضواؤهُ خافتة لا تسمحُ برؤيةِ إلاّ من معك، اقتربَ النادلُ وأوقدَ لنا شمعتين، أسندَ كريم مرفقه على الطاولة ووضعَ يدهُ تحتَ وجهه يحدّقَ إليّ بعينيه الصافيتين، كشفَ بابتسامتهِ عن أسنانهِ فرأيتُ الدمِ يغطي أحد أسنانهِ الأمامية، أخبرتهُ أنّ لثتهُ تنزف فاستأذنني ليذهبَ إلى المغسلة. عادَ شاحبَ الوجه يبحث بعينيه عن أحد الجالسين:

– هل أزعجتكَ رؤية الدم؟

– عندمَا وصلتُ إلى المغسلة خرج رجلٌ من الحمّامِ، كنتُ أمضمضُ فمي، نظرَ إليّ ذلكَ الرجل كما لو كان يعرفني يا هاجر وعندما انحنيتُ مجددًا، انفجرَ ضاحكًا ثمّ غادر مسرعًا، لا أدري ما المضحكُ في رجلٍ يغسلُ فمه؟

– فعلاً، لا يوجد ما يضحكُ في الأمر!

– عليّ أن أصارحكِ، أظن أنني رأيتُه.. كان يشبهُ من كان معكِ في الصورِ لكن أكثر شحوبًا وبعينين جاحظتين!

– هل أنتَ واثق؟

– لا أعلم، هذا لا يعقل .. كيف لي أن أقابل رجلاً ميتًا؟

– هذا المساء كنت تتهمني بالجنون!

– هذا ليس الوقت المناسب للشماتة علينا أن نفكّر في حلٍ ما من أجل التخلصِ منه!

– كيف بوسعنا التخلص من رجلٍ ميتٍ؟

– لابد أنّه توجد طريقة لذلك!

مقابلة كريم لجورج أراحتني لأنّها أثبتت له أنني لا أعاني الجنون، تمددنا على السرير نفكّر كل منّا على حدة بعدها تنهدَ كريم تنهيدة طويلة وبدأ يقبلني بشغفٍ بادلتهُ إيّاه، كنتُ ممتلئة بغضبٍ رغبتُ بالتنفيسِ عنه عبرَ ممارسةِ الجنس، لم ألتفت لا إلي يميني ولا إلى يساري لأعيش لحظاتي بتفاصيلها الشهية، حتى أنني أغمضتُ عينيّ كي لا أشعر بشيءٍ غير وجودِ كريم، حينَ انتهينا استسلمَ زوجي للنوم واستسلمتُ للحزنِ، ألمٌ استقرّ في صدري يشبهُ الندمَ أو تأنيبِ الضمير وشيء من الاحتقارِ لنفسي والاشمئزاز من جسدي، لم أكن أؤجلُ الاستحمامَ لطلوعِ الشمس بل أغادرُ سريري ليلاً لأعودَ إليهِ طاهرة مثلَ زانيةٍ تعتقدُ أنّها تتخلصُ بالماءِ من خطيئتها، حينَ فكّرتُ بما أحسُ بهِ أدركتُ أنني لا أتألمُ اعتقادًا منّي أنني أخونُ جورج بل أخونُني، أمارسُ الجنس لأشبعَ غريزتي مثلَ أيةِ قطةٍ شبقة تمارسهُ من أجلِ البقاءِ والاستمرار أو مثلَ أيةِ عاهرةٍ تبيعُ جسدها مقابلُ المال أمّا أنا شعرتُ أنني أمنحُ جسدِي بلا أيةِ مشاعرٍ تكنّها المرأةُ لحبيبها بل فقط كنوعٍ من الامتنانِ وردِ جميلٍ، تساءلتُ إن كنتُ أحبُ كريم؟ وكانَت الإجابة: أنا أكنّ لكريم كل ما قد تكنّه امرأةٌ لرجلٍ إلاّ الحُب!

مرّت ثلاث أشهرٍ كاملة لم يقتحم فيها جورج حياتنا، أتقنّا تجاهله وفرضنا عليه الرحيل، كان كريم يقولُ: إن كانَ الإنسان قادرًا على دفنِ إنسان حيّ في ذاكرته دونَ قتلهِ حقًا كيفَ يعجزُ عن ردمِ ميتٍ بالنسيان؟ لم أكن أوافقهُ تمامًا في فكرتهِ، يبدو لي من خلالِ تجربتي أنّ نسيان عزيزٍ حيّ أسهلُ من نسيانِ عزيزٍ ميت! موتهُ ينفضُ عنه عيوبه في عينيك وخطاياهُ في حقك، يجعلك تحبهُ ذلكَ الحب العميق بلا أملٍ ولا شروطٍ، تحبهُ فقط لأنّكَ تحبهُ، كان كريم يسألني من حينٍ لآخر بأسئلة مقتضبة إن عاد طيفهُ يزعجني وكنت أجيبه بالنفي ثم نغيّر الموضوع عمدًا.

قابلتُ هذا الصباح والدةَ جورج في السوبرماركت حيثُ تقاطعنا وكلّ منّا تجرّ عربتَها، تذكرتُ اليومَ الذي وصلنِي فيهِ نبأ وفاةِ جورج، كيفَ خرجتُ من المستشفى حافيةَ القدمين إلى بيتها، استقبلتني بحبٍ وعانقتني لتسرقَ منّي ما تبقى من رائحةِ ابنها الميت في ثيابي، لم تلمني على وفاتهِ فقد فهمت أننا ذهبنا إلى الموتِ معًا، لطالما كانت سيدة نبيلة وطيبة وجورج ورثَ عنها وجهها وقلبَها، ترددتُ في الذهابِ لأسلمَ عليها لكنّها تجاهلتني وادّعت أنّها لم تتعرف عليّ، ملامحُ وجهها أبدت امتعاضًا كأنّها قابلت أكثر امرأةٍ تكرهها على الإطلاق، أدركتُ أنّ خبرَ زواجي قد وصلها وهذا ما جعلها تتألم، قتلتُ ابنها بحبي له ثمّ مضيتُ أتابعُ حياتي مع رجلٍ آخر..

هذه المرة سأكون صادقة مع نفسي وسأعترف: "أنا أشتاق جورج في أكثر من مناسبة وكثيرًا ما لا أستطيع مقاومة التفكير بِه" سيتحطمُ قلب كريم إن علمَ أنّني أحيانًا حينَ أصلُ إلى ذروةِ نشوتِي.. أغمضُ عينيّ وأتخيلني بينَ ذراعيّ الرجل الذي أحب، كثيرًا ما أشردُ أثناء إعدادِ الطعامِ أو كيّ الملابس لأتخيّل كيفَ كانت الحياةُ لتكون لو أنني كنتُ معه، كان مهووسًا بإيطاليا ويرغبُ بأن نمضي شهرَ عسلنا في مدينةِ البندقية، نركبُ زورقًا وقتَ الغروب وعازفُ كمانٍ يقفُ خلفنا ليطربنا بألحانه، كان يخططُ لإنجابِ طفلٍ وطفلةٍ نطلق على الأوّل اسمَ إسلام وعلى الطفلةِ إمّا ماريا أو كريستينا، كانَ يقولُ لن تكونَ الأديانُ مشكلتنا مع أطفالنا سنعلّمُهم كيفَ يكونون جيّدينَ من أجلِ أنفسهم ليتعلموا كيفَ يحترمونَ ذواتهم أثناءَ وحدتهم وأنّ الله طيبٌ جدّا سندعهم يكبرون ليبحثوا عنهُ بأنفسهم بحدسهم وقلوبهم وعقولهم، قبلَ أن يموتَ بليلةٍ أخبرنِي أنّ كلّ ما خطط لحياتهِ يتعلقُ بي لذا إن فشلَت

مخططاته لن يستبدلَ امرأته كما يستبدلُ رجلٌ بدلته، المرأةُ كالجسد لروحِ الرجل لا تستبدل إمّا يحيا بها وإمّا يموتَ إلى جانبها، ربما ما كان عليه أن يموت أو ربما ما كان عليّ أن أعيش!

هكذا وأنا أفكّر بكل هذا وصلتُ إلى شاطئ البحر الذي تواعدنا فيهِ قبل ساعاتٍ من الحادثة، شيءٌ قويٌ داخلِي ساقني إليه، ماذا لو هزمني الحنين فذهبت إلى الأماكن التي جمعتني بهِ دون أن يشعرَ بي أحد واحتفظتُ بأسراري الصغيرة لنفسي، وجدتُ الشاطئ خاليًا فالشتاءُ كفيلٌ بأن يجعل البحر وحيدًا، هذا المساء يشبه ذلكَ المساء ببرودةِ طقسه وغيومهِ الرمادية، جلستُ على الرملِ أتذكرُ كيف وصلتُ مرتبكةً فخرج جورج من البحر يمشي باتجاهي باسمًا ومبللاً، اليومُ البحرُ غاضبٌ كأنّهُ يعاتبني تمامًا كما عاتبتني والدةُ جورج بنظراتها الحاقدة، نزلت دمعةٌ على خدي الأيمن دون أن تستشيرني.. حينها تحدّث إليّ:

– كنتُ أعلمُ أنكِ ستشتاقين إليّ ..

– أنتَ هنا؟ "التفتُ إليه غير متفاجئة "

– كنتُ أعلمُ أنّكِ إن نزلتِ إلى أعماقِ قلبكِ لن تجدي رجلاً غيري، اشتقتكِ كثيرًا لو تعلمين..

– أنا آسفة.. قسوتُ عليكَ كثيرًا، أعتذرُ عن كلّ ما فعلته بك، أعتقدتُ أنّ نسيانكَ ممكنٌ!

– هل تذكرين ما قالهُ لنا ذلكَ المجنون الذي قابلناهُ على الرصيف مترنحًا؟ وجّهَ سبابته نحونا وقال:

الإنسانُ يعيش، يموت ويحبُ مرةً واحدةً

– سألتهُ: ماذا عن القصص التي حدثت في مراهقتنا أو ستحدث في شيخوختنا؟

أجابَ:"وهم !"

– بل قال: "عبث!" دعينا من هذا الكلامِ الآن وهاتِ يدكِ لندخلَ البحر.

– لكنّ البحر..

– أرجوكِ!

أعطيتُه يدي دون أن أخلعَ فستاني الأبيض الطويل، الماءُ كانَ يجرفُ أقدامنا، سحبنِي جورج إلى صدرهِ وقبلّني. كانت قبلات خفيفة وغريبة ولا طعمَ لها كما لو كانَ النسيمُ يقبلُ شفتيّ ويعبرُ فمي:

– نحن نبتعد !

– لا تنظري خلفكِ

– هل ستأخذني معك؟

– هل تريدين ؟

– لا أدري ..

– مازلتِ لا تدرين؟

– الماء يصلُ إلى فمي!

– لا تقلقي أنا معكِ..

– أنا لا أتنفس.. أنا أغرق!

– أحبكِ!

انطفأ كل شيءٍ.. فقدتُ الوعيَ بإغماءةٍ عميقةٍ أطفأت كلّ حواسي وحينَ استيقظتُ خرجت من البحر على بللٍ، رأيت الناس يجتمعون على الشاطئ، اقتربتُ منهم فرأيتهم يحاولون إسعاف إمرأةٍ تشبهني، إنها أنا! أحدُ الصيادين كان يحاول منحي تنفسًا اصطناعيًا لكن لا فائدة لم أكن أستجيب:

– لا حول ولا قوة إلا بالله . . لقد توفيت!

– هل هناك من يسبح في بحر اليوم؟

رأيتُ كريم يركض من بعيدٍ وهو يصرخ في الجميع: "ابتعدوا عنها إنّها زوجتي، دعوني آخذها إلى المستشفى" لكنّهم كانوا يبعدونه عن جثّتي التي كان يحتضنها باكيًا ويحاولون إقناعه بموتي، بعدها نقر أحدهم ظهري بأصبعه، التفتّ كان جورج:

– دعينا نرحل من هنا!

قصص

الدخلاء

سارة النمس

تستغور الكاتبة الجزائرية سارة النمس في هذه المجموعة القصصية (الدخلاء) العوالم الماورائية في إطار الواقع، لتؤسس علامات سرديةً مصدرها هواجس أبطال قصصها والتداخل بين الشعور واللاشعور، الحقيقة من جهة والكوابيس وأحلام اليقظة من جهة أخرى، فيشتبك الكائن البشري مع كائنات شبحية أو شيطانية تسبب له الأرق والفزع الدائمين، وتقلب حياته أحياناً إلى جحيم، كل ذلك في سياق سردي متخيَّل مشوِّق يجعل القصص الخمس أقرب إلى السرد الغرائبي.



فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس ٩٦٢٦٤٦٥٠٨٨٥+
Fadaat For Publishing & Distribution
Amman - Jordan . dar_fadaat@yahoo.com